

# المبحث الرابع

## أنواع الغرائز

### (١) غريزة حب النفس

ألا كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهماً بها صَباً  
حُبُّ الجبان النفس أوردته التقى وحُبُّ الشجاع النفس أوردته الحربا  
غريزة حب النفس هي العماد الكبير والوازع العظيم الذي يدفع  
الكائنات الحيّة إلى تحصيل أقاتها، والدفاع عن سلامتها؛ فالنبات  
تسيخ جذوره وتتشبّ في باطن الأرض سعيًا وراء الغذاء، ومن  
أجله يعدو بعضه على بعض تسلّقاً واستناداً وامتصاصاً. والحيوان  
طالباً للغذاء يبطش قوته بضعيفه، ووحشيّه بأليفه. ومع أنّ الإنسان  
قد ساد أنواع الحيوان لا يستطيع أن يحصى ما يهاجمه في كلّ لحظة،  
فهو ما عاش مهدّد بالهوامّ تتسابق لامتصاص دمه، وحقنه بنمّات  
سمومها، ومهدّد بجيوش الجرائم تناوته أينما ذهب متندياً كان أو  
متنفّساً، وتترقّب فيه الضعف فتنتقض عليه وتميته.

لو أنّ الناس تحابوا لتعاونوا على مناجزة الأعداء، بهمة قعساء،  
لكنّهم اختلفوا في المشارب والأهواء، وسلّوا على أنفسهم سيف  
القضاء، واستعجلوا الفناء « وَأَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً  
وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ »

وكلما زادوا حضارة وعلمًا ، زاد التنازع بينهم فتكًا وتقضًا وهدمًا .  
تجد الطفل القاصر يعبت بملك غيره ، ويتمنى أن يكون كل شيء  
ملكًا له ، لأن مدى شهوته للطعام والشراب بعيد . اصبر على هذا  
الطفل حتى ينمو عقله ، وتنفذ إرادته في صلب الحقائق تجده لا يتحقق  
محبة نفسه إلا إذا وصلها بحبة غيره نوعًا ما ، فإذا واسبى مكروبًا  
أو أعان بائسًا أو أطم مسكينًا فكأنه يجرُّ النفع إلى نفسه ، لأنهم  
لا ينفكون يذكرون رحمة بهم فيردون له جميلًا مثله ، أو ينطقون  
بشكره إذا أعجزتهم القدرة .

هذا وإن ترقت المجازاة من أجل الدوافع لإسداء المعروف  
واجتناب المنكر . وقد حيب الله تعالى إلى نفوس الأتقياء محبة العمل  
الصالح وبغضهم في الشر ، رغبة في نيل ثوابه واتقاء عقوبته . ولا تجد  
حب الخير لجرّد أنّه خير إلا عند من وصفهم الله تعالى بقوله  
« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا  
نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَنُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » وعند  
من منحهم الله قوة الإيمان كصهيب الذي قال فيه عمر بن الخطاب  
« نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » فقد أثنى عليه لأنه يطيع  
الله تعالى تقديرًا لجلال نعمه لاخشية من عقابه

يحب الإنسان أبناءه لأنه يتوقع منهم المساعدة إذا قدروا على  
الكسب ، وأضناه الكبر ، وهذا الحب ظاهر في الإناث مطلقًا نحو  
صغارها حفظًا للنوع ، وترى هذا الحب يأخذ في النقص كلما كبروا ،

واستطاعوا السعى واعتمدوا على النفس . وما تسامح المرأة لأبنائها  
إذا أذنبوا إلا وازع هذا الحب الغريزي . جاء في أمثال الميداني :  
أن رجلاً تزوج امرأة وله أمٌ عجوز ، فقالت المرأة للزوج لا أنا ولا  
أنت حتى تخرج هذه العجوز عنا . فلما أكرت عليه احتمالها على عنقه  
ليلاً ، حتى أتى وادياً كثير السباع فرمى بها فيه ، ثم تنكر لها فمر بها  
وهي تبكي فقال : « ما يبكيك يا عجوز » ؟ قالت : « طرحني ابني هاهنا  
وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد » . فقال لها : « تبكين له وقد  
فعل بك ما فعل ، هلا تدعين عليه » ؟ قالت وأرسلته مثلاً : « تأبني  
له ذلك بناتُ البُيبي <sup>(١)</sup> » .

فاذا علمت أن حبَّ الوالدة لولدها طبيعيٌ ، فلا إخالك تنكر أن  
حبَّ الولد لوالديه أو لوالده وليد المعروف وثمره العطف والحنان ،  
فالولد يحبُّ والديه متى أحسنَّ عطفهما عليه ، ومتى عاقباه انقلب حبه  
كرهاً ، لأنَّ الغرض الشريف من العقوبة التي يوقعانها به يدق فهمه  
على ذهنه ، فيتبادر لعقله القاصر أنهما يسيئان إليه

ويحبُّ الإنسان إخوانه مدفوعاً بمامل المبادلة في المنافع ، وهذا  
الحبُّ موقت يبق ما بقيت المصلحة . قيل إن رجلاً جمع أبناءه الثلاثة  
وأعطى أحدهم خبزاً ، والثاني أذماً ، والثالث فاكهة ، ورخص لهم في  
الفسحة معا ، فتطلع كلٌّ منهم إلى ما بيد أخويه ، واتفقوا على أن يقسم  
كلٌّ منهم نصيبه أثلاثاً ، يبقى الثالث لنفسه ، ويبادل أخويه في الثلثين

(١) بنات الألب عروق في القلب تكون منها الرقة

الآخرين ، فتم لكل واحد منهم أنصبة متعادلة من الخبز والأدم  
والفاكهة ، ولولا هذا النفع المتبادل ما اتفقوا .

لعزلة والاجتماع يشترك الإنسان والحيوان في أن العزلة مضادة لطبيعهما ، وأن  
الاجتماع فيه تساند وتآزر ، فالنحل حيوان اجتماعي لا يستطيع صنع  
العسل إلا بمساعدة رفقاته ، والنمل لا يدخر قوته إلا بمشاركة أفراده ،  
والخُطاف لا يهاجر من أوطانه إلا أسرابا ، والدواجن تعيش هنيئة  
إذا اجتمعت ، ويرى عليها البؤس إذا افترقت . والبقرة المعزولة لا تدرُّ  
اللبن ولا تسمن مثل البقرة وسط الصُوار<sup>(١)</sup> .

### الأثرة والإيثار

الفضيلة وسط بين طرفي الأثرة والإيثار ، وقد ورد « حب  
لغيرك ما تحب لنفسك » . نعم نخط عن الفضيلة نفس من يبذر في ماله  
ولو في سبيل الجود ، ونفس من يلهو عن غيره بمصالح نفسه ، ومن  
يلاب الفرور بعقله فيرى نفسه جديرة بالمديح وهي مجردة من وسائله ،  
ومن يصادر إخوانه في حقوقهم ويقف منهم موقفا ممقوتا ، فيحقد على  
المواساة الحقيقية من ساوؤه ، وينكر فضل من فاقوه ، ويستخف بمن نقصوا عنه .  
وليس من المحبة المنشودة أن يجامل الإنسان أخاه بعبارات  
السرور عند سبوغ النعمة ، وأن يُسليبه بالكلام عند نزول الكارثة .  
ولإنما المحبة الحقيقية أن يتوجه بالفعل إلى جرّ النفع ودرء الضرر متخذًا

من المال والجاه عضداً قويتاً . ولا يكون إشفاقه على البائسين صادقاً إلا إذا جرت لوعة الجوع والعزى والحاجة ، ولذلك شرعت زكاة الفطر بعد صوم شهر رمضان لتكون النفس قد عرفت وطأة الجوع والمعطش فتسمى في تخفيفها .

أراد معلم أن ينفخ في رُوع تلاميذه محبة الإحسان إلى البائسين ، فأخر عنهم الغداء قليلاً حتى هاجهم ألم الجوع ، ثم أقبل عليهم وقصَّ حديث من نكبتهم الأيام فطردوا من ديارهم أو أوذوا في نفوسهم وأموالهم ، فجادوا بالزر اليسير ، والكريم من جاد بما عنده . ولا يخفى أن تعويد الناشئ مدد المساعدة للمحتاجين مقلل من شوكة الأثرة ، ولا سيما إذا وجد من إخوانه إقبالاً على فعل الجميل ، فليشترك التلاميذ في جمع إعانات ينفقونها في تعليم من تتوافر فيهم المواهب الذهنية من الفقراء ، أو يتعاونوا جميعاً على تفهيم المسائل كما كان يفعل بستاوتزى إذ كان يُجلس التلميذ الذكي بين التلاميذ الضعيفين ليرشدهما . ناهيك بما تحذته زيارة ملاجى العجزة ومستشفيات المرضى فإنها داعية إلى محبة المعروف، مرشدة إلى أن الإنسان عرضة لتقلبات الزمان ، وما أحوج هؤلاء المرضى إلى كلمة تسلية يسمعونها من زائر تخفف عنهم لوعة الوحشة والأحزان ، أو إلى هدية تريح نفوسهم ، وتدفع بهم إلى التفكير في وسائل الشفاء !

وللأندية والمعارض وجمعيات التعاون والنقابات والمجلات والصحف وممارسة المناقشات الموصلة إلى الحقائق شأن كبير في تأليف

النفوس بعضها ببعض على قواعد الإخاء المتين والحب المتبادل . وقد قرّر علماء الاقتصاد أنّ الشخصين المجتمعين يشتغلان في يوم واحد ما لا يستطيع الفرد أن يعمله في يومين . فالفرق بين العاملين هو فضل الاجتماع وثمره التعاون .

إنّ المجتمعات وحدها وسيلة متينة لتوثيق عرا الوداد ، وتمكين أسباب الإخاء والودّ بين أعضائها . فقد يكون العضو محبباً لقوم يشاركونهم في مجتمع خاصّ ، ومحبباً لآخرين يشاركونهم في مجتمع آخر . بل قد يكون للفرد الواحد اشتراك مع غيره في مجتمعات عدّة ، فيتضاعف حبه لهم بمقدار ذلك .

## ( ٢ ) غريزة الخوف

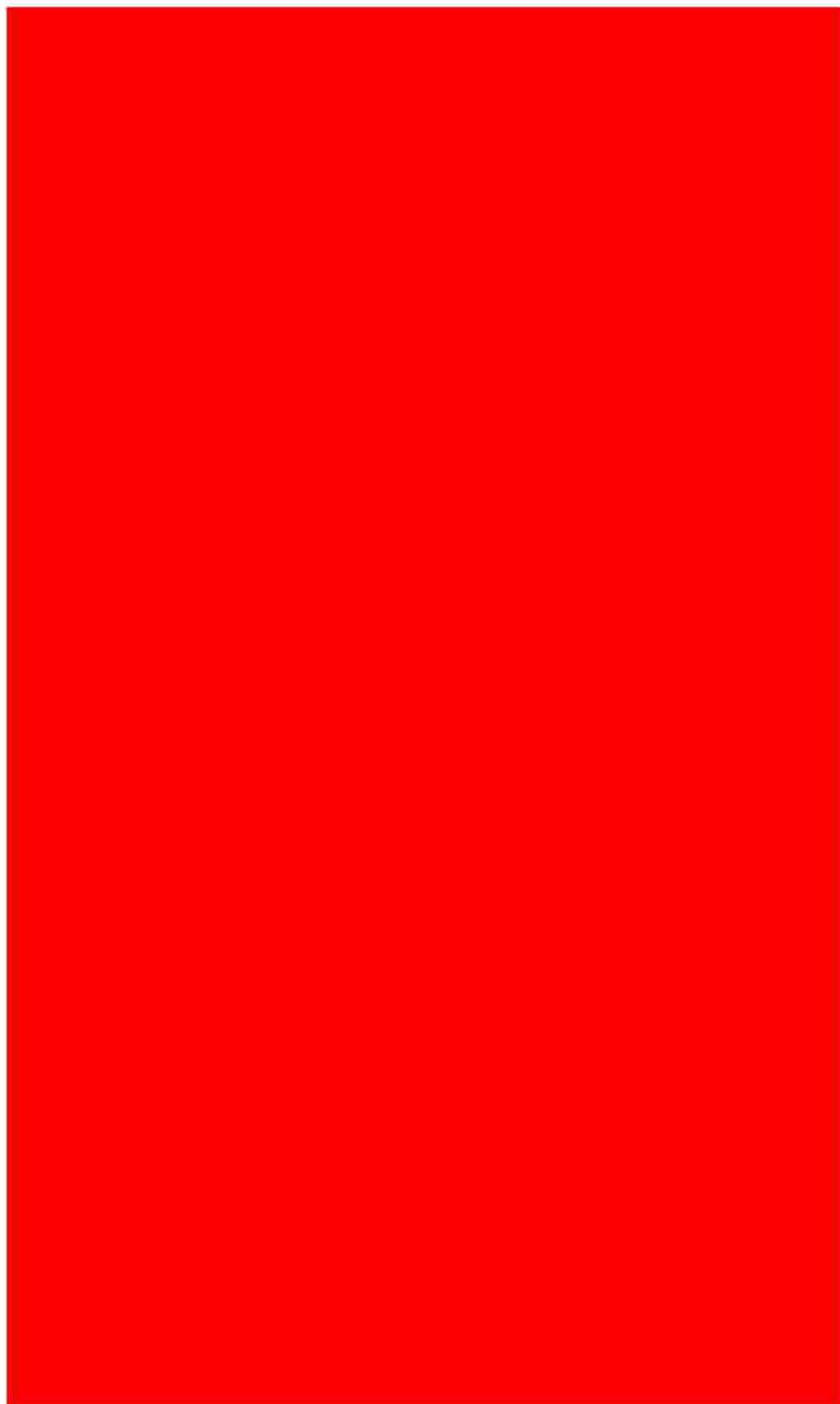


هي مشتركة بين الحيوان والإنسان ، ويخفف وطأتها على الإنسان ما يتوخاه من طرُق أبواب الحيل . ولا يدرك معنى الخوف على حقيقته ، من امتدَّ به رواق المدينة ، وورَف ظلُّ الأمن . وغالباً يعتمد في تصويره على ما يرسمه الخيال ، أو ما يجود به الكاتبون من وصف المحن التي تفتك بالإنسانية في الحروب والزلازل والمناجم ، وبين ألسنة اللهب ولجج البحار . ومع أن هذه الأخيلة مؤثرة لا يرسخ أثرها في الحافظة رسوخه إذا أصيب الإنسان بشيء منها وأنجاه طول العمر . أرادت كاتبة أن تكتب في وصف الخوف الذي يحسُّه السارق ، فعنَّ لها أن تدخل دُكَّانا ، وتظاهر بالسرقة فتقدّمت إلى البائع وأغلظت له في القول ، وضابقتة في المعاملة ، وأعرضت عن الشراء ؛ وبينما هي في الطريق إلى الباب ، تناولت من الأرض هنة ، وما كادت تخرج حتى أدركها الحارس وضبط ما معها ، وأوسعها شتماً وإبلاماً ، وسلمها إلى شرطيٍّ رافقها إلى المحكمة للفصل في أمرها . فلما ممّلت بين يدي القاضى أدهشه حسن زيّها ، وجمال زوايتها ، مع تفاهة الشيء المسروق ، فسألها عن التهمة فاعترفت بها ، ثمّ استفسرها الأسباب ، فأجابت بأنّها ما فعلت ذلك حبّاً في السرقة ، بل حبّاً في درس الوجدان الذي يلازم هذا الموقف . فلم يسع القاضى إلا أن أنفذ عليها جزاء الحبس على اعترافها بالسرقة ، ثمّ قصده الإمبراطور فقصّ عليه أمرها ، والتمس منه العفو عنها .

يردّد على النفس شيء واحد فيكون أحياناً مصدر سرور ،

وأحياناً مصدر خوف . فالطفل يرى الكلب اليوم فيقترب منه ويلطفه ، ويراه في غد فينأى عنه ويتهيبه . وإذا تساءلنا عن سبب هذا الاضطراب علمنا أنه رأى الكلب لأول عهده مسالماً قال إليه ، وعند ما أقبل الليل وأن أوان نومه ، وألهاه اللعب عنه ولم يمثل أمر أمه ، أمرت الخادم أن تصوت محاكية نباح الكلب ، وأظهر الحاضرون الفزع من سماعه ، فذهب مسرعاً إلى فراشه وانكمش في مضجعه ونام . ولما استيقظ صباحاً ، ورأى الكلب عينه ، وسمع نباحه على تلك الصورة التي سمعها ليلاً فلا تعجب إذا رأيناه يخافه ، إذ الخوف الذي كان كيناً عنده قد أثارته التربية السيئة .

بمثل هذا نعال الفرق بين الحمام الذي يأوى إلى الكعبة ويرفرف عليها مستريحاً مطمئناً ، والحمام الذي يسكن الجهات الأخرى . فحمام الكعبة استأنس لأن غريزة الخوف عنده كامنة لم يثرها ثأر ، فلم يهاجمه أحد ولم يؤذ صياد ، عادة ألفها من الإنسان وقد وصّاه الله بهذه المعاملة . أمّا الحمام الآخر فيسمع غالباً دوى البارود المفزع ، ويشاهد شبح الإنسان مقرونًا به ، فتنبه عنده غريزة الخوف بمجرد رؤية الإنسان ، ويفطن إلى أنه يريد الاعتداء عليه فيخافه . أمّا ذراريه فربما لا تشاهد مثل هذا الاعتداء ، ولكنها تحاكي أصولها في هربها من الإنسان فتخشاه تبعاً .



وكذلك يفعل الخوف في العقل ، فيتكدر صفاء الحافظة ، وينقلب  
النسيان ، وتتعلل الإرادة الصالحة ، إذ لا تجد فكراً يقظاً ، ولا عضواً  
مطيعاً ، ويستسلم الذهن للخيال المروع ، حتى إذا رأى غير شخص  
ظنه رجلاً ، وتستولى عليه الوسوس ، ويزلُّ عن مواقف الصواب .  
وكثير الخوف يعتدى على المزاج ويجرُّه إلى الهلاك ، كما يحصل  
للمجرمين الذين ينفذ عليهم حكم الإعدام . يقفون بين يدي الجلاد  
والسياف ، وإذا قدّم أحدهم للقتل مات الذي يليه من شدة  
الفرع والجزع

### مشيرات الخوف

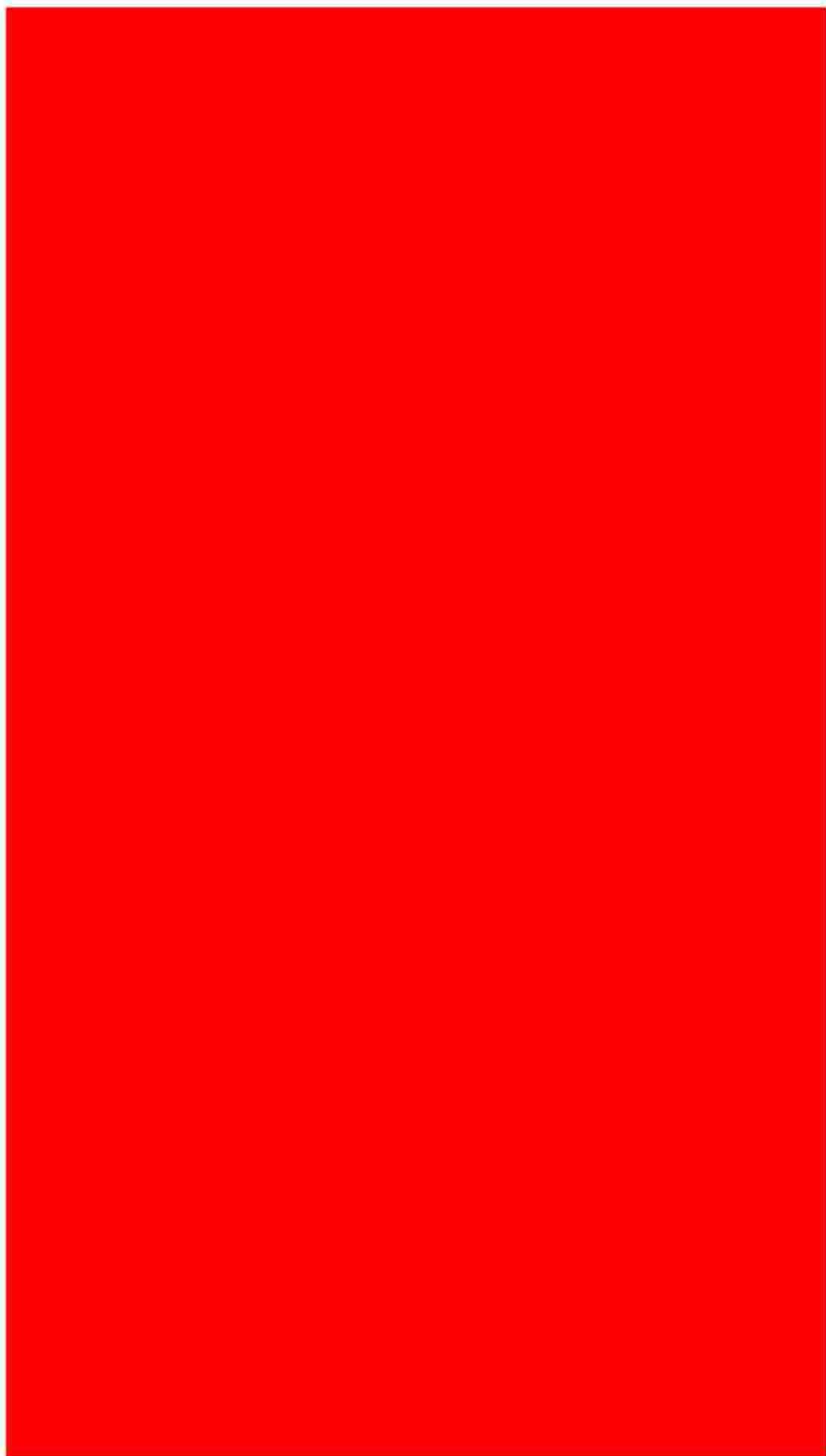
نشور النفس بفطرتها عند سماع الأصوات الشديدة التي تصل  
إليها من غير انتظار ولا استعداد ولا تعرف لها أسباباً ظاهرة .  
أصيب محمد علي باشا الكبير بصيحة مزعجة من جراء إعدام المماليك  
في قلعة مصر ، كانت تنابه أحياناً فيسمع منه زئير كزئير الأسد  
يتقطع من سماعه نياط القلب . جلس رسّام إلى جانبه ليرسمه ، ولما  
سمع هذه الصيحة هلع فؤاده ، ومات من شدة الفرع  
وكثيراً ما نرى المتفرزين تعروم رعدة الخوف لأقل صوت أو  
حركة . وهم الذين قالت فيهم عائشة أم المؤمنين : « إنَّ لله خلقاً قلوبهم  
كقلوب الطير ، كلما خفت الريح خفت معها . فأفّ للجبناء »  
في سنة ١٩٠٦ كنت جالساً مع المعلمين في كلية غردون

ما يجده الصوت  
لشديد من الروعة

بالخرطوم ، وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث ، إذا صوت هائل  
هز أركان المدرسة وصدع بنيانها ، ثم شخّصت أعيننا إلى السماء فإذا  
هي اغبرّت ، وكساها الدخان التراكم ثوباً كثيفاً ، فسكتنا ذاهلين ،  
وأقبل بعضنا على بعض يتساءل عن هذه الحادثة ، وما المسئول عنها  
بأعلم من السائل ، ثم تفقدنا الطلبة فرأيناهم خارجين من الحجرات  
بقضيمهم وقضيضهم مذعورين يلتمسون النجاة من شرّ هذا الهول  
العظيم . ولما اطمأنت النفوس ، وهدأت العقول ، وحققت الحادثة ،  
علمنا أنها نشأت من انفجار ١٥٠ طنّاً من البارود ، وما ظلّك بصوت  
امتدّ صدهاء على بُعد ٣٠ ميلاً من مكان الحادثة التي كانت لشدّتها  
تُصمُّ السميع وتُعمي البصير      ويُسأل من مثلها العافية

ومن مثيرات الخوف رؤية المشاهد الغريبة العجيبة المضطربة ، رؤية المشاهد الغريبة  
كروية لصّ مسلّح في هيجانه ، وكجراح حصان انقلبت سحنته ونصب  
أذنيه وفتح منخريه . رأيت في أسفارى طفلاً يترنح من البشاشة  
والسرور ، وقفته أمّه ليطلّ من نافذة القطار ، ولما تحرك اضطرب  
مزاجه فعبس وبكى بكاء مرّاً ، ولما أدارت وجهه عن رؤية المناظر  
المضطربة المتجددة سمكن جأشه . وكذلك شاهدت طفلاً يلعب  
الخوف بعقله ، فعبّست ملامح وجهه ، لأنّ حامله اقترب من البحر  
فكدرت أمواجه المتلاطمة صفاء سروره .

ومنها المبالغة كما إذا حدثنا متكلم على غير انتظار ، أو نبج



the 1990s, the number of people in the UK who are employed in the public sector has increased from 10.5 million to 12.5 million, and the number of people in the public sector who are employed in health care has increased from 2.5 million to 3.5 million (Department of Health 2000).

There are a number of reasons for this increase. One of the main reasons is the increasing demand for health care services. The population of the UK is ageing, and there is a growing number of people with chronic conditions such as heart disease, diabetes, and asthma. This has led to an increase in the number of people who are hospitalized and the length of their stays. In addition, there has been a growing emphasis on preventive care, which has led to an increase in the number of people who are seen by their general practitioners and other health care professionals.

Another reason for the increase in the number of people employed in the public sector is the increasing demand for health care services. The population of the UK is ageing, and there is a growing number of people with chronic conditions such as heart disease, diabetes, and asthma. This has led to an increase in the number of people who are hospitalized and the length of their stays. In addition, there has been a growing emphasis on preventive care, which has led to an increase in the number of people who are seen by their general practitioners and other health care professionals.

There are a number of reasons for this increase. One of the main reasons is the increasing demand for health care services. The population of the UK is ageing, and there is a growing number of people with chronic conditions such as heart disease, diabetes, and asthma. This has led to an increase in the number of people who are hospitalized and the length of their stays. In addition, there has been a growing emphasis on preventive care, which has led to an increase in the number of people who are seen by their general practitioners and other health care professionals.

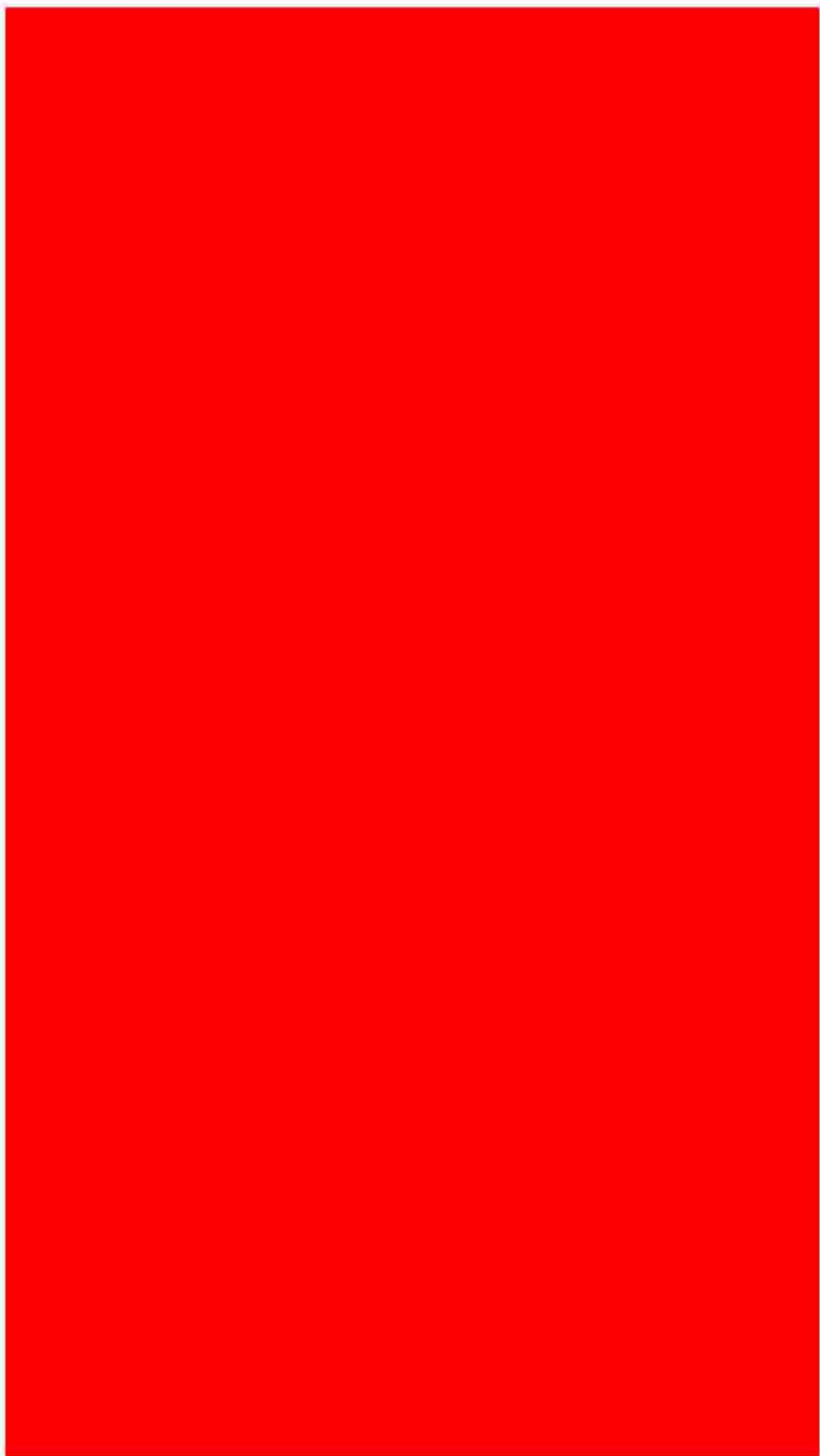
There are a number of reasons for this increase. One of the main reasons is the increasing demand for health care services. The population of the UK is ageing, and there is a growing number of people with chronic conditions such as heart disease, diabetes, and asthma. This has led to an increase in the number of people who are hospitalized and the length of their stays. In addition, there has been a growing emphasis on preventive care, which has led to an increase in the number of people who are seen by their general practitioners and other health care professionals.

There are a number of reasons for this increase. One of the main reasons is the increasing demand for health care services. The population of the UK is ageing, and there is a growing number of people with chronic conditions such as heart disease, diabetes, and asthma. This has led to an increase in the number of people who are hospitalized and the length of their stays. In addition, there has been a growing emphasis on preventive care, which has led to an increase in the number of people who are seen by their general practitioners and other health care professionals.

There are a number of reasons for this increase. One of the main reasons is the increasing demand for health care services. The population of the UK is ageing, and there is a growing number of people with chronic conditions such as heart disease, diabetes, and asthma. This has led to an increase in the number of people who are hospitalized and the length of their stays. In addition, there has been a growing emphasis on preventive care, which has led to an increase in the number of people who are seen by their general practitioners and other health care professionals.

There are a number of reasons for this increase. One of the main reasons is the increasing demand for health care services. The population of the UK is ageing, and there is a growing number of people with chronic conditions such as heart disease, diabetes, and asthma. This has led to an increase in the number of people who are hospitalized and the length of their stays. In addition, there has been a growing emphasis on preventive care, which has led to an increase in the number of people who are seen by their general practitioners and other health care professionals.

There are a number of reasons for this increase. One of the main reasons is the increasing demand for health care services. The population of the UK is ageing, and there is a growing number of people with chronic conditions such as heart disease, diabetes, and asthma. This has led to an increase in the number of people who are hospitalized and the length of their stays. In addition, there has been a growing emphasis on preventive care, which has led to an increase in the number of people who are seen by their general practitioners and other health care professionals.



وقد يكون الخوف من ضعف الصحة ، ولا يفيب عنك ما يحدثه عند الممعدود من الجبن وخور العزيمة ، وما يتردد على ذهن المحموم من المفزعات فيخيّل إليه مزاجه المضطرب صوراً من الوحوش الضارية تتأثره ، أو صخوراً من السماء تنحدر عليه ، وتراه للتملص منها في فاق وحيرة .

تأثير الوهم

يقيس الإنسان عرض الطريق الذي يسير عليه فلا يجده يزيد على نصف متر ، ولكنه إذا سار على المشارف العالية أو على ممر في البحر ، يلعب به الوهم ويسوقه إلى موارد الخوف رغم إرادته ، فتجده يحتاج إلى ما يستند إليه ، وإلا فإنه لا يتمالك الوقوف . ومن ذلك أن شخصاً حكم عليه بالإعدام ، فشددت على وجهه عصابة ، وأعلم أنه سيُفصد تنفيذاً لهذا الحكم ، وبدلاً من الفصد سلط الفاصد عليه رشاشاً من الماء الفاتر ، فظنه دماً يقطر منه وغشي عليه فوات من تأثير الوهم . وبين ظهرا نينا أناس بذروا في شهواتهم ، وقضوا القضاء العاجل على سعادتهم بانغماسهم في الترف والنعيم ، فيحسّون طبيعاً بتأفف ، وحينئذ يوسوس لهم الخيال فيحملهم على اعتقاد أن فيهم داء ، فيفزعون إلى الطبيب ليفحص عن مرضهم فيستريب ، وربما اختلق لهم علة وخوفهم بطشها فيميشون من هذا الوهم المضعف في ذلّ دائم وقلق مستمر . ولو حسبت من يموت في زمن الوباء وجدت أكثرهم يلقى حتفه من تأثير الوهم ، والوهم من ألد أعداء الإنسان

قراءة القصص

ومن محدثات الخيال المزعج قراءة القصص ، وهي أشدّ الأمور استرقاقاً لذهن الناشئ . وما ظنك بمن يجلس بين يدي أمه أو عجائز

البيوت ولا يسمع إلا نواذر العفاريت والجان ، وما يفعلونه من ضروب الأذى والحرمان ، بلينا بهم في المهد الأول من طفولتنا ، واعتقدنا صدق روايتهم لصغر عقولنا . وإن من يوطن نفسه على اعتقاد أنها من التخرُّصات والأكاذيب ، ثم ينطلق رابط الجأش إلى اختبار مصادرها ، لا يجدها إلا كضباب أرسلت إليه الشمس أشعتها فبددتها . وقد كفانا المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده <sup>(١)</sup> مئونة البحث عن حقيقة هذه الأوهام إذ أسمعنا : أن في مصر دربا يدعى حيضان المسلمي بين الأزهر والدرب الأحمر ، اشتهر بالخوف ، وذهبت فيه أحاديث الناس مذاهب شتى ، لضيقه وظلامه وإهمال وسائل الأمن فيه ؛ حدثنا أنه عقد رهانا مع طائفة من إخوانه لاختراق هذا الدرب ليلا ، وما بدأ بالسُّرى حتى غشيه الوهم ، وبدت عليه أمارات الخوف ، وكان كلما صور له الخيال شبحا مفزعا تجلَّد وأيقظ فكره وأحيا عزيمته ، وسَلَّ سيف إرادته ، واندفع إلى حجب الوسوس فزقها ، ومرَّ في سبيله كالسهم من الرميَّة . وبينما كان سائرا سمع غطيظ نائم فعقَّب الصوت واسترشد به إلى مصدره ، وإذا هو غلام كان يلعب مع إخوانه الصبيان وغلبه النوم فأيقظه ، وتقدَّم به الأستاذ إلى

(١) الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية توفي سنة ١٩٠٥ نبغ في العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية . وخدم العلم والإصلاح وأتمت طريقه في الطلاب . أجهل العالم الاسلامي لأنه تصدى للدفاع عن الدين وكان له من كتابته وخطابته وذلاقة لسانه وبلغ بيانه تأثير نادر المثال

من حضر في الطرف الآخر من الدرب ، وقصّ عليهم من أمره علماً ،  
وصوّب لتلك الإشاعة من همته سهماً ، وأثبت لهم من التجارب عزماً  
وحزماً ، واقتلع من نفوسهم ضلالة ووهماً .  
وما الخوف إلا ما تخوّفه الفتى وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمناً

## منافع الخوف

الخوف المعتدل من أكبر عوامل الإصلاح ، والعاقل يجعله كالنار  
يتدفأ بها ولا يلمسها ، وهو الذي يحمل النفس على التريث والأناة ،  
ويشير المواهب الفكرية لتمحيص الأمور ، وقد ورد «من خاف سلم» .  
فإذا دبّ ديب الخوف في إنسان على أثر رؤية حيوان ضار ، ففرّ من  
موقفه إلى مواطن السلامة ، ضناً بحياته أن يعبت بها الشرّ ، أو إذا  
دهمت النار في منزله فثبت أمامها رابط الجأش يفكر في وسائل النجاة ،  
ودفع غائلة الحريق ، مُحِدَت مَنَبَّة هَذَا الخوف الذي نبّه القوى  
الفكرية على خطر الموقف والاستعداد له ، ودرء مخاوفه بما يستطيع  
من الإقدام والنشاط .

وخوف الله تعالى رأس الحكمة ، لأنه يضبط النفس الجامحة  
ويكفها عن مباشرة الاعتداء ، في غيبة الرقباء ، وكفى بالله رقيباً . وماذا  
عسى أن يكون خطر الملحدين على المجتمع الإنساني وتلوهم -م مجردة  
من هذا الوازع ، ولهذا غلا فولتير في قوله : « لو لم يكن الله موجوداً  
لوجب علينا أن نخلقه »

في الخوف قوة روحانية تكفل تحرّري الإصابة والسلوك بالإنسان في مسالك البحث والتقيب ، لتخيّر الأسباب الراجعة التي ترشده إلى السعادة ، على أنه قد يبذل ما لا يقبل له به من وسائلها ، ثم تفلت منه الغاية المنشودة ، ويضلّ حيث يريد الفوز . ذلك لأنّ الأسباب المعقولة التي جال فكره في اختيارها ، ربّما لا تكون أسباباً حقيقية في الواقع . فقائد الجيش يرسم خطة الهجوم التي يتوسّم فيها النجاح في ساحة الحرب ، ولكنّ عدوّه ربّما حسبها من قبل — على سبيل توارد الخواطر — وأعدّها لها المدّة ، فيتبدّل الأمر ، وتسوء العقبى

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

لذلك جاءت مشروعية الاتكال على الله بعد إجادة الأسباب .

وهذا الاتكال برهان على عجز الإنسان وقصر عقله في الإحاطة بالحقيقة . وقد أجاد أبو تمام في قوله :

وقد يُكهِم السيف المسعى منية وقد يرجع المرء المظفر خائباً

فحسبه أن يزاول الأمر بعد عرض أسبابه على محكّ الفكر ، ثمّ

يقف بين طريق الأمل بالنجاح والخشية من الخيبة ، ويضرع إلى

الله تعالى راجياً حسن التوفيق ، إلى أقوم طريق . « وَمَنْ يُسَلِّمْ

وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَىٰ

اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور ،

رأينا من الناس من اندفع بلا عقل في سبيل المضاربة ، ودخلها

من غير حساب لعواقبها ، فربح وخرج من السوق ظافراً محسوداً .  
ورأينا منهم من يدخل السوق ويزن الأمور بميزان العقل ، ويحكم  
عليها حكماً منطقيًا يقينياً ، فيُخجم عن الشراء ، مع أن الواقع ربما  
لا يتفق مع رأيه ، فأمثال هذه الحوادث لا يصحُّ القياس عليها . ولو  
تأمّلت معنى تلك الآية ، وتفهمت ما تحتويه من البيان ، وما تدلى به  
من الحجّة ، لعرفت أن الله عنده مفاتيح الغيب ، وأننا لا نملك من  
أمرنا إلا أن نزنها بعقولنا ، ونعاشي الدليل ونستند إليه ، ونعول عليه ،  
فإذا عادى القدر مسامانا ، فلا حول لنا ولا حيلة . إن الذي يستسلم  
للمضاربة إذا صحّت معه الأحوال وجرت معه الأمور في طريق غير  
معقول ، يوشك أن يرد منها مورداً يقضى على ماله ، وما أحكم المثل  
المشهور « ليس المخاطر محموداً وإن سلم » .

## الشجاعة

الخوف غريزة كما علمت . أمّا الشجاعة فصفة كسبية تجود بها  
التربية ويصقلها التمرين . والجبان والشجاع سواءان عند الصدمة  
الأولى ، ثمَّ يتفرقان فيخور الجبان ويتعثر في أذيال الخيبة ، ويحتال  
الشجاع ليتملص من الأذى . وقد أنصف ابن حزم ففسر الشجاعة :  
« بأنها بذل النفس للدود عن الدين أو الحرّيم أو الجار المضطهد ، وعن  
المستجير المظلوم ، وعن الهزيمة ظلماً في المال والعرض وسائر سبل

الحق ، والصبر على ما ذكرنا جُبْنٌ وَخَوْرٌ ، وبذلها في عروض الدنيا تهوّر وحق ، وأحق من ذلك من بذلها في منع الحقوق والواجبات ، وأحق من هؤلاء قوم لا يدرون قيم يبذلون أنفسهم ، فيتعرضون للمهلك : إمّا إلى العار ، وإمّا إلى النار .

وقد التبس على بعضهم معنى الشجاعة فعدّها غريزة ، ووصفها بأنها قوّة نفسيّة كامنة تظهرها الحوادث من غير انتظار ، حتى إنّ الشجاع بعد خروجه من ميدان القتال يرى أنّ ما أبداه فيه من البسالة والإقدام ممكن لكلّ شخص ، إذا أُتيح له موقف مماثل لموقفه .

والحقيقة أنّ هذا الوصف ليس يدلّ على الشجاعة التي نحن بصدد بحثها في هذا المقام ، بل ينطبق على غريزة الهرب الآتية ، وهذه الغريزة تدبّه في احوال استثنائية ، عند الطوارئ والحوادث الفجائية .

وإذا سلّمنا جدلاً بأنّ الشجاعة غريزة ، تأتي وجودها كالغرائز الأخرى في كلّ شخص ومن دون جدّ ومكافأة ، وكان من العبث حينئذ أن تعدّ من ألقاب العظمة والتمجيد ، وأن يتأسّل بها الفخر فينتقل بالميراث من جيل إلى جيل .

الهمجى لا يرى الشجاعة غريزة ، بل يعتقد أنّها تتولد بالعلاج ، ذلك أنّ الوالد يذهب إلى المفازة فيصيد الأسد ، ثمّ يشقّ صدره ويستخرج قلبه وينضجه ويطعمه أبناءه فيشبهون على الشجاعة . وليس اختيار القلب من بين الأعضاء لإطعام أبنائه إلاّ دليلاً على أنّ القلب

هو آلة الشجاعة ، فإذا تمثّل في الجسم وجرت عصارته في الأعصاب ظهر الابن الصغير بمظهر البسالة والإقدام . وهمل الشجاعة في نظر المتمدّين إلا صلابة في الجسم ، ورزاة في القلب ، وممارسة للمخاطر ، واندفاع في حومة الوغى بصدر رحب ، واستخفاف بالموت في سبيل المحافظة على النفس والأهل والعشيرة والوطن ؟

إنّ أعلى شيء يملك من الإنسان لَبّه إنّما هو الحياة ، ولا شيء ينجها من الأذى ويجعلها بمنزل عن مواقف الهلاك سوى البعد عن المخاوف ، أو بعبارة أخرى ، إنّ الجبن سبيل للحياة الهادئة التي تراح إليها النفوس الضئيلة وهو لا يحتاج إلى كفاح ، ولذلك عدّ من الغرائز ، فيكفل سلامة الجسم في الطور الأوّل ، حتّى تتوّد الشجاعة فتتسلّم زمام الأمور ، وتسيرها على الوجه الأكمل .

والشجاعة التي عليها مدار كلامنا ينطوي تحتها حبّ الكسب من وجوهه الشريفة ، والصراحة في القول ، وخدمة الأمة بإبراز المحترقات النافعة ، وارتياح المجاهل ، والجهاد بأنواعه المشروعة .

قال ملك لوزيره وهو يختبر حذقه : انّني بأردأ طعام ، في أقبح إناء ، يحمله أحقر إنسان . فظنّ الوزير أنّ طلبته الملك سهلة ميسورة ، فاستحضر فولاً ووضعها في وعاء من الخبز ، واستأجر لجمه إلى الملك عاملاً حقيراً للملابس ، وكاشفه بالأمر . فدهش العامل وقال للوزير : لقد أخطأت المراد ، وحدثت عن طريق السداد ، دونك الطعام الذي تقدّر الوجبة منه بمشرات من الجنّيات ، وهو الطعام الغليظ

الذي تَضَعُ المِدة دون هضمه ؛ دونك الوعاء الذهبى الكلال  
باليواقيت ، وقيمة الصفحة منه مئات من الجنيهات ، وهو الوعاء الذي  
إذا كسر كانت الخسارة باهظة ؛ دونك فلانا الثرى الوارث المنغمس  
فى النعيم والترف ، اللامى عن مهام الحياة ، الذى لا يبالى أن يكبل  
المال جزافا ؛ خذ هذا الذى وصفته لك إلى الملك فإنه الذى عناءه  
بطلبه . وأجرؤ وأقول : إني — وإن كنت فقيراً معدماً — ذو نفس  
شريفة غنيّة . وهل فى شخص غيرى يتحقق معنى الشجاعة وأنا أسمى  
إلى القوت بياض نهارى ، ومتى انتهى النهار جئت بأجرى الزهيد  
وصرفته على بيتى ، معتقداً أنه ثمين ، لأنه ثمرة عرق الجبين ؟

شجاعة العامل

نم تمثل الشجاعة فى هذا الشخص وفى البناء مثلاً ، ذلك الذى  
يقوم بعمله واقفاً على عود خشب قد ينكسر به ، أو يُفات منه فيهِوى  
إلى الأرض ، وهو على كل حال معرض لزمهرير البرد ووهيج الشمس ،  
قانع من القوت بالثر اليسير ، راض من الرزق بالأجر الزهيد .

كذلك تمثل الشجاعة فى نفس العامل الذى انطوى به باطن  
الأرض ، إما فى مناجم الفحم بعيداً عن مناظر الكون الجميلة ، متنفساً  
فى جوّ من الغاز السامّ ، وربما انفجرت فيه عين ماء ، أو التهب فيه  
الغاز فيذوق الموت الزؤام ، وإما فى مسابك الحديد وقبس النار يلمع  
فى الأفق ، وآلاف الشرر تصعد فى الجوّ ، ومذوب الحديد يجرى  
كالماء فى الجداول ، إذا مسّ الجسمَ شىءٌ منه ذهبت النفس شعاعاً .

شجاعة المستكشفين

كذلك تمثل الشجاعة فى نفوس المستكشفين الذين يهجرون

أوطانهم وما حوته من نعيم ، لتفقد البلاد النائية ، واستخراج حاصلاتها ، والانتفاع بخيراتها ، ويزيدون رفاهية العالم بما يوسمونه من الأرزاق عليهم وعلى الناس .

وتتمثل في نفس الجندي الذي يخرج إلى الحرب وعلى جسمه شجاعة الجندي العُدَد ، والجو متلبّد بالبارود ، يُلقَى إليه الأمر بالهجوم فينتفض على الحصن المسّاح ، وينال منه إحدى السعادتين : الفوز على العدو أو الموت الشريف ، ويبني له ولقومه حصناً من الفخر ، ومكاناً من الرفعة . ومن لنا بمثل خالد بن الوليد الذي قال وهو يحتمض : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وهأنأ موت على فراشي كما يموت الميّر فلا نامت أعين الجبناء » .

وتتمثل الشجاعة فيمن يسهرون للمصلحة ويمجدون المحترقات ، شجاعة المخترع ويزاولون التجارب على ظهر البسيطة ، أو في الجوّ وقرار البحر والموت يهدّد حياتهم . وكم ضحّى بها العلماء ، رغبة في إدراك طلبتهم ، فأتوا شهداء المصلحة العامة ، كالشخص الذي يخّص غيره من شرّ أحدق به ، حبّاً في حياة أخيه ، وإرضاء لضميره الشريف .

وتتمثل الشجاعة في نفس أصحاب المبادئ السامية ، تأمل نصيحة أمّ عبد الله بن الزبير له ، وقتما سممت بمثلها من أمّ إلى ولدها . دخل عبد الله على أمّه فقال يا أمّاه : خذاني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلاّ اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ . فقالت : أنت أعلم بنفسك .

شجاعة أصحاب  
المبادئ

إن كنت تعلم أنك على حق فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا  
تتمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية . وإن كنت إننا أردت  
الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وإن  
قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل  
الأحرار ولا أهل الدين ، كم خلودك في الدنيا ؟ فقال يا أماء أخاف  
إن قتلتني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني . قالت : يا بني : إن الشاة  
المذبوحة لا تتألم بالسليخ ، فامض على بصيرتك ، واستعن بالله  
فترى لصاحب المبدأ عقيدة راسخة ينطلق لتأييدها ونشرها ،  
غير مبال بسخط الساخطين ، أو عقاب الحكام ، وكل ما يلقاه من  
المدوان حينئذ يقع في نفسه موقع القبول . فكم صبر الأنبياء والحكماء  
على أذى الناس لا اعتقادهم أن الحق ناصرهم . وكم تحمل جوناس هاناوي  
( Jonas Hanaway ) استهزاء الناس به ، سائرًا في شوارع لندن في  
يوم ممطر ، حاملاً مظلة اخترعها لم يعهد لها الناس من قبل . وقد لبث  
في جد متواصل حوالي ٣٠ سنة لا يبالي بما يوجهونه نحوه ، حتى نجح  
في نشر استعملها .

هذه الجهود التي استلزمها الشجاعة على ما فيها من السمو ورفعة  
القدر ، يراها الحكيم دون شجاعة من يجاهد نفسه فيحضها على  
الفضائل ، ويبعدها عن الرذائل ، ولا عجب فإن صلاح النفس دِعاة  
صلاح الأمور .

لشجاعة في جهاد  
النفس

لا ترجع الأنف عن غيها مالم يكن منها لها زاجر

## التخويف والتشويق

كانت العقوبات البدنيّة فيما مضى أنجع علاج للتقصير ، حتى زعم بعضهم أنّ الطفل إذا أخطأ فقد عاد إلى طبعه الفاسد ، ولا يرجعه عنه إلا الإرهاق . وقد تبين لك ممّا كتبناه في باب الفطرة قيمة هذا الرأى . ومن رجا أن يزيد الخوفُ الاتّباعَ قوّةً ونشاطاً فقد طلب شططا . فإنّه على العكس يدعو إلى البلبه والذعر ، ويجعل الأمر البسيط صعب المنال . فلو سرق الطفل شيئا وعوقب بالضرب الذى من شأنه أن تشمئز منه النفس . فإنّ السرقة وألم الضرب يرتبطان معاً فى ذهنه ، فيعرض أحدهما عند عروض الآخر على سبيل تداعى المعانى . فيجتنب السرقة لما يترتب عليها من النتيجة المبغضة . وقد رأى العالم اسبنسر — وهو من غلاة الناقدين لهذه الطريقة — أن لا ملاءمة بين السرقة والضرب ، فإذا أخطأ الطفل فسرق ، لا يليق بالمعلم أن يخطئ فيضربه ، لأنّه وقتما يريد تقويمه يقع هو نفسه فى ذنب آخر ؛ ونباله مقصد التعليم تأبى ذلك ، وتجيز له أن يستبدل بها طريقة العقاب الأدبى وهو أشدّ وقعاً فى النفس ، ذلك أن يأخذ المعلم من مال السارق ما يفي بالمبلغ المسروق صنفقة واحدة أو نجوما ، كي لا يفقد صاحب الحقّ ماله ، ولتتموى الرابطة بين المعلم والتلميذ .

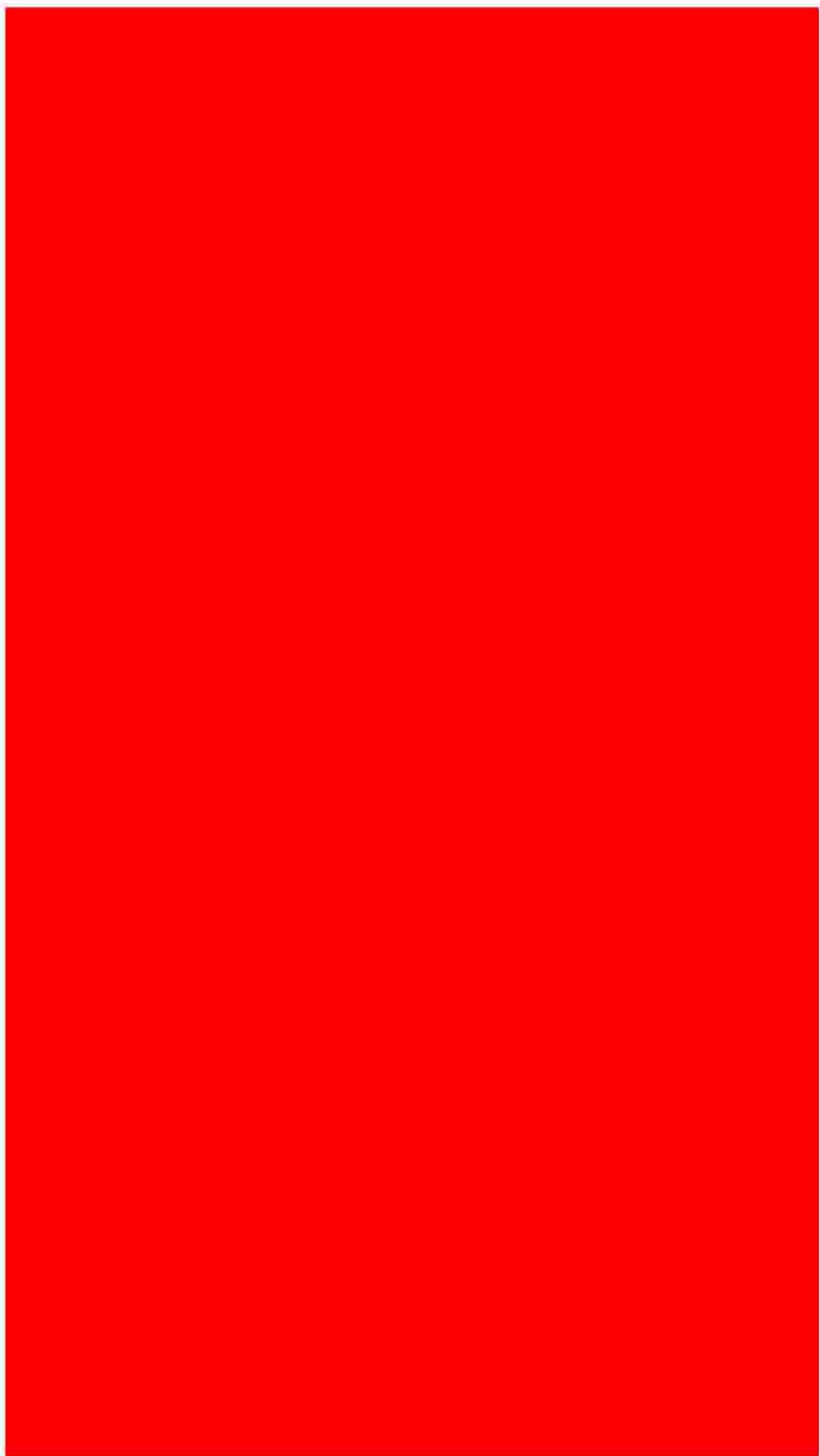
وكم يبلغ تأثير المعلم إذا تفقد الشكوك النفسية وعمل على إزالتها وأنفذ بصره فى العواطف فاستثارها . لى ابن كان يناهز الرابعة من

الجهاد فى إزالة  
شكوك الطقل

عمره أصابه قبض « إمساك » فأعطيته كعكة فيها مشي « ملين » ،  
وقلت له : إني اشتريت لك هذه فكلها تبرأ من المرض ، فأرأيتـه  
وقع في ريبة من أمرها ، ولما تفرست فيه أنه عدل عن تناولها ،  
تخيرت طريقة أخرى أضمن لشوقه ، وأبلغ في قبول نصحي ، هي أنني  
رجوته ألا يأكلها الآن ، بل يبقها لديه يتأمل ما احتوته من حسن  
رائع ورائحة ذكية ، ولما تركته علمت أنه تناولها طائعا مختارا .

فالأوامر والنواهي لا تؤثر إلا إذا صادفت شوقا ، ولا مانع من  
أن يدع المعلم تلميذه يجرب ما تيسر من الأمور ليذكر نتيجة تجاربه ،  
وإذا عاد مخذولا فقلما عاد إليها . هبك قلت له : « لا تمسك المبراة  
لأنها حادة وأخشى أن تجرحك » . أترأه يطبعك ويعمل بنصيحتك؟  
كلا . لكنه إذا أمسكها وأساء استعمالها ، ثم أصابه جرح فجئت إليه  
وذكرته بالضرر الذي نشأ من سوء استعمالها ، وأرأيتـه وجهه الخطأ ،  
وأظهرت له العطف والشفقة ، وأرشدته إلى الطريقة المثلى ، فإنه يكون  
لك سميما مطيعا ، وتتربى فيه الإرادة الصادقة والنظر السديد .

فطريقة التشويق تلطف الطباع ، وترهف حدَّ الإرادة ، وتقوى  
عرا المودة . وطريقة الإرهاب تسقم البدن ، وندفع الفكر إلى العمل  
قسرا . ولو تأملت هاتين الحالين لوجدت في كل منهما منزعا مفيدا .  
على أن شئون الاجتماع لا يستطيع أن يصوغها الإنسان على وفق  
هواه فررة تحلو ومرة أخرى تمر . ومن لم يمرن نفسه على وقع المصائب  
شقت عليه ، ولا يستطيع على طول الزمان مكافحتها ، لذلك كان



يفعل هذا فعلاً غريزياً متى أحس من نفسه ضعفاً أمام عدوه ،  
ليزججه بهذا الانقلاب الغريب قبلما يتخذ إلى الفرار سبيلاً . وترى  
السبع وهو سيّد الحيوان يركن إلى الحيل عند لقاء عدوه ، فيخضع أو  
يتقهقر حتى يستجمع قوته ، ثمّ يتحين الفرص للاقتراس . وقد جاء  
في المثل : **مُخْرَبِقٌ لِيَنْبَاعٍ** <sup>(١)</sup>

إنّ الشجاع إذا فاجأه الخوف لا تفتر همته ولا تززع عزيمته ،  
بل يتريث ليوازن بين قوته وقوة خصمه ، ويعالج الأمر لعله يجد  
مجالاً للفوز ، وإلاّ التمس طريق الفرار صوناً لحياته ولا عار عليه ،  
وينشط الجسم حينئذ نشاطاً قلماً خطر له ببال . فقد حدث أحد  
السائحين أنّه رأى رجلاً فارّاً من أسدٍ يحاول اقتراسه ، وفي أثناء  
فراره تسلق جداراً عالياً ، ولما زال الخطر عاد هذا الرجل إلى تسلق  
الجدار فشقّ عليه . وربما لا يحصل الهرب وإنما يقوم مقامه الاضطراب  
إذا اشتدت وطأة الخوف ، كالذهول الذي يحسه المستيقظ وقد شبت  
النار بمنزله . وربما برق شعاع من نور عقله يثير فيه النشاط إلى إخماد  
النار أو الفرار طاباً للمساعدة . وكالفزع الذي ابتأست به قلوب  
اليابانيين من الزلزال الذي نكبت به البلاد في صيف عام ١٩٢٣ ، فقد  
كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، تكتظ أرجاؤها  
بالقصور الضخمة والشوارع المعبدة ، وأهلها مسوقون بالمطامع ،  
يدخرون الأموال لعمر مديد ، وعيش سعيد ، وفي غضون خمس دقائق

اندكت تلك الصروح ، وغارت في الأرض تلك الأبنية ، وغضبت الطبيعة فجرت من الولايات ماجرته تلك الحرب الضروس في مدى الخمسة الأعوام .

مادت الأرض وانشقت طرقاتها فابتلعت الغادين والرائحين ، وخرت المباني على رهوس الساكنين ، واندامت السن النيران ، وهاجت أمواج البحر ، فهلح القوم من شر ما رأوا ، وانطلقوا على غير هدى يحاولون الخلاص ، وكلما خرجوا من خطر تلقاهم غيره ، ومن نجا من هذا وذاك بات عرضة للجوع والمعش والمعى .

هكذا ازدحمت عوامل الهلاك ، فأطارت لب العاقل ، وروعت قلب الشجاع ، وخرجت البلاد من هذا المصاب دامية الجروح مهيضة الجناح . ولولا صدور مفعمة بالشجاعة وقلوب لم يتسرب إليها اليأس لبات اليابان أثراً بعد عين .

رأى وليم جيمس أن الاضطراب من الفزع يحصل عقب الإحساس به ، ويحصل الخوف تبعاً للاضطراب ، وانتقد قول بعضهم فلان ساء حظه فحزن ثم بكى ، ورأى فلان عدوه نخافه ثم فر . لأنه يرجح تقدم البكاء على الحزن في المثال الأول ، وتقدم الفرار على الخوف في المثال الثاني ؛ واستدل على رجحان رأيه بالاضطراب الذي نحسه أولاً متى بدأنا بالسير في طريق مظلمة ، ومتى باغتتنا صوت مزعج ، ومتى رأينا صاحباً يتقلب على مهاد الآلام

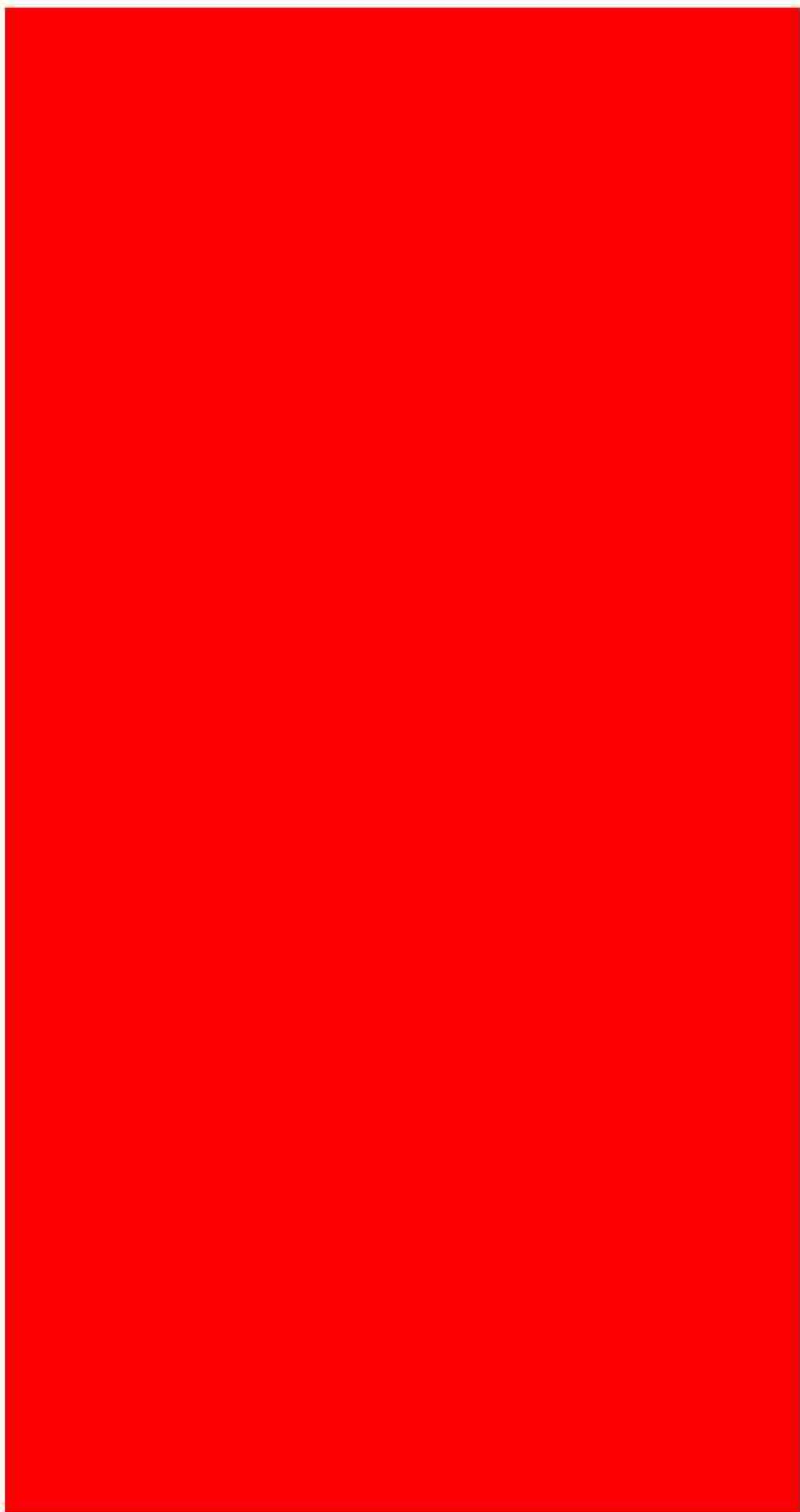
وقد اتبع وليم جيمس هنا طريقة القرآن المبسوط في هذه

الآيات من سورة الكهف : « وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ .  
وَنُقَلِّبُ لَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ  
بِالْوَصِيدِ <sup>(١)</sup> أَوْ اطَّاعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ  
مِنْهُمْ رُعبًا » فَإِنَّ تَقَدُّمَ ذِكْرِ الْفِرَارِ عَلَى الرَّعْبِ بِشِيرٍ إِلَى التَّرْتِيبِ  
الزَّمَانِيِّ فِي الْجُمْلَةِ .

### ( ٤ ) غريزة الغضب

هي كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له  
بالميول ، ولا صلة بينه وبين المعاني التي تفرغ لها الذهن . وتخالفها في  
أن الخوف يحمل الإنسان على الهزيمة والفرار ، وأن الغضب يفضي  
إلى الهجوم والاشتجار .

عند الغضب يُسرِعُ الدم إلى القلب كما يحصل عند الخوف ،  
ثم يثور فينتشر في العروق ويرتفع إلى أعلى البدن فيجمرُ الوجه ،  
وينتفخ الودجان ، ويجيش الصدر ، ويعمس الوجه ، وتنكشف الشفتان  
عن الأسنان ، وينطلق اللسان بالإقذاع ، وتتأهب الأعضاء للفتك  
كالوحش الضاري ساعة الافتراس ، وقد مثل الإمام الغزالي الدماغ  
عند الغضب بكهف أضرمت فيه نار فاسودَّ جوهُ ، وحمى مستقره ،  
وامتلأت جوانبه بالدخان وكان فيه سراج مضى ، فانطفأ نوره .





فغضب المأمون واعتذره المكوك بأن المأمون وآل بيته لا يقاس أحد بهم ، ويمجّز لسان المديح عن تقدير وفير مآثرهم ، فلم يُقِم المأمون لهذا الاعتذار وزناً وأهدر دمه . ونحن إذا أنكرنا على المأمون سَوْرَةَ الغضب في هذا المقام وفي غيره ، والتصديّ لإهانة العلماء الذين كانوا يذهبون إلى ما يخالف رأيه ، فإننا لا ننكر على أخيه المعتصم سَوْرَةَ الغضب التي سادت عقله حينما سمع قول المريّة في أرض عمورية من إقليم الروم : « لا معتصماه ولا معتصم اليوم ، فإنّها أثارت فيه حميّة العرب ، ولم يبال حينئذ بنصائح الذين تحرّصوا وكذبوا وأرادوا صدّه عن الغزوة وعن انتصاره للبائسة الحزينة ، وقد انطلق بذلك لسان أبي تمام في قصيدته التي مطامها :

السيف أصدق إنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجمد والالعاب  
لا ننكر الغضب الذي يتولانا من رؤية المُنديّات المُخزّيات  
التي يندى لها الجبين حياء . ومن سماع المكابرة في المناظرة ، ومن التمسك بالرأى الذي لا يستند إلى الدليل ، ولدى إغفال الحقّ ، وإنكار الصدق ، وعند الازدراء ، وفي مواطن الإيذاء ، فكان المصطفى ينعضب فتحمرّ وجنتاه ، ولم يخرج الغضب عن محجّة الصواب ، حتى صبح ما يقول أرسطو أيّ انتصار ينال في الحرب بلا غضب ؟

إنّ الغضب كالأفمى ذات الملمس اللين إذا بطشت غدرت ،  
وكالقوّة الفاشمة إذا حكمت ظلمت ، وكسيل الماء ذي اللجة الجارفة  
لا يأمن من عثاره ، من سار في تياره ، حتى لقد أشار المصطفى على

من استوصاه بنصيحته الثمينة فقال له : « لا تغضب » ، ويسر على  
غير الحكماء أن يضبطوا شكيمته ، ويخففوا وطأته .

إن الغضب إذا هبط بمقدار مناسب كان منبهاً للحمية ، محرّكاً  
للنفوس الأبية ، موقظاً للنخوة ، مشيراً للشجاعة والفتوة  
ولا خير في حلم إذا لم تكن له بؤادر<sup>(١)</sup> تحمى صفوه أن يكدرها

### كظم الغيظ

قال ابن الرومي :

« توقي الداء خير من تصدّد لأيسره وإن قرب الطيب »

فينبني للماقل ألا يتأثر بفواعل الغضب ، وأن يجارب وسائله  
ما استطاع ليكون حاملاً بأوامر الله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرةٍ  
مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ  
يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »  
ولقد صدقت عزيمة رجلين سارت الركبان بشهرتهما في السباحة والحلم :  
معاوية بن أبي سفيان والأحنف بن قيس . كان معاوية يسمع كلام  
الناقد فلم تأخذه ضغينة ولم ينقم منهم ، وإنما كان هذا يدفعه إلى  
توخي العدالة ، وإزالة أسباب المظالم ، ولا تسل عن ثمرات صنيعه  
فكانت كلها خيراً وبركة . ومن ما ثور حكيمه « لو أن بيني وبين  
الناس شعرة ما انقطعت » . ولما سئل عن ذلك قال : « كنت إذا

(١) البادرة : ما بدر من الحدة من القول والفعل في وقت الغضب

مذوها أرختها ، وإذا أرخوها مددتها . وأما الأحنف فقد جاءه رجل وأخذ يسبه والأحنف مطرق صامت ، فلما رآه الرجل معرضاً عنه أقبل يعرض إبهامه ويقول : يا سوءتاه ، والله ما يمنعه من جوابي إلا هوانى عليه .

بلى سقراط بزوجة شرسة كانت تكيل له من ألفاظ السباب ما ليس له به طاقة ، وضاعت أمامه الحيل لتثقيف طباعها ، فأشار عليه جُلاسِه ومريدوه أن يطلقها فأجابهم « إني لا أحنق عليها لأنها بهذه المعاملة السيئة تعلمنى فضيلة الصبر » .

وروى المويلى أن ملكاً سمع اثنين من حراسه يذمّانه من وراء خيمته ، فرفع الستارة وقال : « ابعدا قليلاً خشية أن يسمع الملك محاورتكما » . وقال ابن المقفع : « إني علمت موطناً واحداً ، فإن قدرت أن تستقبل الجُدَّ بالهزل فيه أصبت الرأى وظهرت على الأقران ، وذلك أن يتورّدك متورّد بالقسّة<sup>(١)</sup> والفضب ، فتجيبه إجابة الهازل المداعب برُحْب من الذرع ، وطلاقة من الوجه ، وثبات من المنطق » .

هذه المرتبة من التسامح لا تنال إلا بتوفيق من الله ، وتوطئ النفس على المكاره ، واحتمال أذى الناس ، والترفع عن نقائصهم ، كما يترفع السبع في قفصه عن النظر إلى من يحصبه . وما أحرى المستاء أن يلتمس المعاذير للمسيئين بأنهم ليسوا من المكاره بالدرجة التي يُعتدُّ بها ، أو بأنهم أساءوا من غير قصد ولا إرادة ، أو بأنهم قصدوا الإساءة

ليتعرفوا مقدار ما يُسديه المحسن من المغفرة فيكفروا عن ذنوبهم ،  
ويرجعوا باللائمة على نفوسهم . وقد اتسع لهذه الأحوال صدر هذه  
الآية الكريمة : « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي  
هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

نم لا يليق بنا أن نجبن أمام إساءة المسيئين لتلايستهمترا بنا  
ويزيدونا بلاء . وإنا لو أنصفنا أنفسنا لأضعفنا المسمى ، بحلم نداوى به  
خُرُقه لعَلَّه يُكَبِّرُ النعمة ، ويشكر الصنيفة ، ويزنها بميزان عقله .  
حتى إذا رأينا فيه نزوعاً إلى الشرِّ علمنا أننا غرسنا المعروف في أرض  
قاحلة فنستبدل بالإحسان . عقوبة الحرمان .

ويكون كظم الغيظ بالتجلد والتسلي ، أما التجلد فهو نهاية ما تبلغه  
نفس الحليم من الصبر ، وهو مفتاح الهوادة والأناة . وأبلغ ما نستشهد  
به في هذا المقام ما حكاه المولى يحيى أن وزيراً أراد أن ينصح الملك  
باجتناب الخمر ، لأنه يخذل النفوس في مواطن الإصابة ، فلم يرتح  
ضمير الملك إلى هذه النصيحة التي أثارته في صدره نار الغيظ فهمم  
بالانتقام : أمر بالأقداح فمدت ، وأخذ يحسو الشراب حتى امتلأ ،  
ثم أمر بآبن الوزير فأجلسه على مرمى سهم ، وقال لأبيه سأريك إذا  
كان للخمر تأثير في قواى العقلية ، وهنا رمى السهم عن القوس فأصابه  
في قلبه إصابة أسقطته على الأرض صريعاً مضرّجاً بدمه . رأى الوزير  
هذا المنظر الفظيع فتجلد ، وقال للملك : فملك هذا — أيها الملك —  
قد بلغ من الإصابة حدّاً لا يستطيع إليه الصيد والقنص أن يدركه .

التجلد

فقدّر شأن هذا الحلم السديد ، والنظر البعيد ، في أشدّ ساعات  
الحن ، وأفنك خاطرات الرزايا ، ولو بدرت منه إذ ذاك فلتة من كلامه  
أو حركات أعضائه لكان هو وأهل بيته وقوداً للظى غيظ الملك .

ومن مخنّفات الألم المثير للغيظ استذكّارُ حوادث الماضين ملوكاً التسلي  
كانوا أو أمراء ، والمصيبة إذا عمّت هانت . فكم سمعنا عن ملوك  
أصبحوا من الرعايا ، وأمراء أذاقتهم الأيام مرارة البلايا . وحيثما كان  
الإنسان عرضةً للأنوب والغير فما أحقّه إذا حمّ القضاء أن يستسلم  
لحكمه ، ويذر الغضب بفائق حزمه . وليس في الشكاية من بلاء سوى  
أنها تفتح للشامتين أبواب المهانة والازدراء .

رؤية الغاضب  
وجهه في المرأة

هل للغاضب أن ينظر إلى وجهه في المرأة وقت الغضب ؟ إذا  
فعل ذلك وجد وجهه الذي يقطر ماء البشر منه قد تلبّدت به غيوم  
الكتابة ، فصار قاطباً عابساً كالحجاء مكفهراً ، كما ترى في الشكل الآتي  
ومن ذرائع كظم الغيظ اجتناب الحسد . والحاسد يتطاع دائماً  
إلى نيم الله على عباده فلا يهناً له حال . هلا علم أن الرزق مقسوم ،  
بقدر معلوم . يحقّ له أن يفرح إذا رأى مظهر النعمة في أخيه فيتسنى  
له أن يقتبس منه العلم والجاه والقوة ، وقد أشفق أبو الحسن التهامي  
على حسّاده بقوله : —

إني لأرحم حاسديّ لشرّ ما      ضمنت صدورهم من الأوغار  
نظروا صنيع الله بي فميوّنهم      في جنّة وقلوبهم في نار  
لا ذنب لي قد رمت كتم فضائله      فكأنما برقت وجه نهار



وكثيراً ما يفشل وهو يطلب الأمر الواحد ، فكيف به إذا  
تسعت المطالب وخرج من الجميع صفر اليدين ؟

وإذا ساورتك هموم الغضب فأخذ إلى السكون ، لأن الحركة علاج الغضب  
تحدث الحرارة وهي تثير الغضب . وفي الحديث « إذا وجد أحدكم  
من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فليتم ، فإن لم  
يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء .  
عليك أن تتعهد بدنك بالنظافة ، وجسمك بالتنزه ، وأحشاءك بالرعاية ،  
وعقلك بالراحة . وعليك أن تزيل عن صدرك صداً الهموم بترتيل  
الشعر ، وسماع الألحان ، وإدمان النظر إلى بدائع الكون ، والسير  
في الرياض وبين الأزاهر . وعليك أن تركز إلى مجالسة العلماء  
ومحادثهم ، فإنهما أحجرت الغضب برداً وسلام .

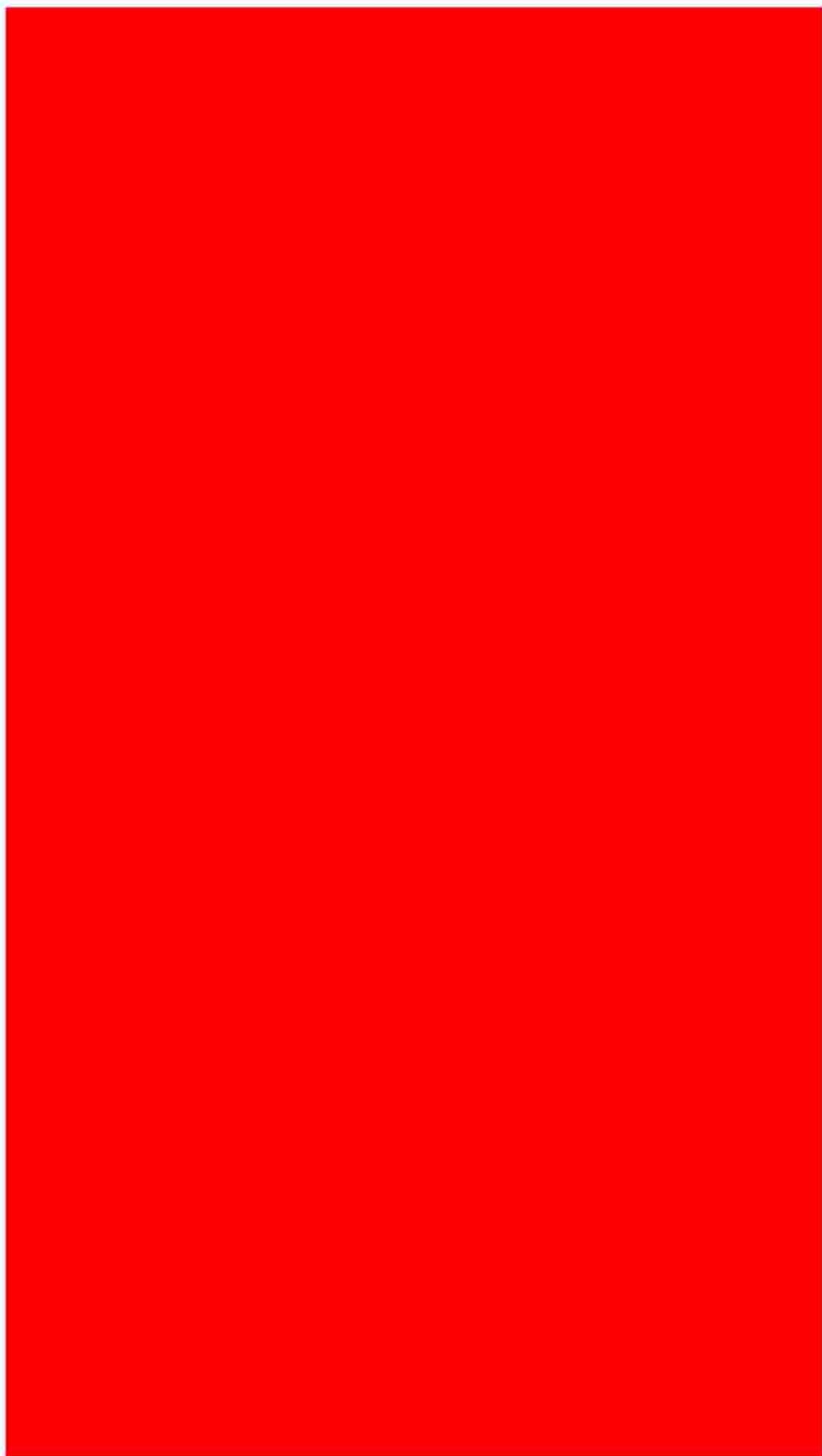
## المعلم والغضب

علمت أن الذهن ساعة الغضب يختل مزاجه ولا يعود قادراً على  
أن يجول جولة صادقة في تربية النشء ، وقد يثور لأقل الأسباب  
ويبطش ، ويذهب في ميدان التعذيب مذاهب شتى ، ولذلك اشترطوا  
في المعلم أن يكون من الحلم والأناة والموادة وترقب المصلحة بحيث  
يتمالك نفسه ويصدّها عن الغضب إذا قصر التلميذ في واجبه العلمي  
والأدبي . وأجدد بالمعلم أن ينقب عن أسباب هذا الإهمال ويحاسب  
نفسه لعله يكون قد فرط في بيان الدرس ، أو جاوز حدّاً لا يستطيع

ذهن الطفل تمثيله وإدماجه في سلك معلوماته . نعم إن التلميذ إذا أوجس خيفة من صارم العقاب يخمد فكره ويقف عند فهم أسهل المسائل ، وربما داهن أوراى وقلبه مملوء بالكراهة ، فينبهم على المعلم مسلك الصواب ، ولا يقدر على درس أطوار الطفل من خلال حركاته . على أن الغضب — مهما كان قليلاً — يجرُّ إلى عواقب بينها وبين التأديب بون بعيد . ويحسُن بي هنا أن أورد أمثلة تؤيد ذلك . رأى والد في ابنه إهمالاً فهمَّ بإنفاذ العقوبة ، فاتَّقاها الولد بالهرب ، ولما لم يدركه الوالد رماه بكرسى أصاب في رأسه شرياناً فأدماه ، فندم الوالد ورجع خائباً أسفاً من شرِّ ما فعل .

غفل طفل عن حفظ درسه فأوقعه المعلم تحت طائلة العقاب ، وضربه بمسطرة ضربة مُبْرِحَةٍ فجرح يده ، شقَّ ذلك على المعلم فاستعان بغيره على تضميد الجرح وتخفيف لوعة الألم ، ولما اطلع والد الطفل على ما حصل استنفع العقوبة ، وشفي غليله من المعلم بشكايته . فانظر كيف أدَّى الغضب بالمعلم إلى الخرق في الرأى ومضاعفة العذاب ، « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

خرج طالب عن حدِّ الأدب في أثناء الدرس فهاجَّ سخطَ المعلم ، وأعلَّه أسرف في العقوبة وكاشف التلاميذ بأمرها ، بيد أن الناظر استعظم العقوبة واستبدل بها التأنيب إحقاقاً للحق ، فترزعع بعد ذلك مركز المعلم ، ولم تعد عقوباته مرموقة بعين الاحترام . سمع معلّم في درس الخطّ رنة صوت تتردّد في أنحاء الحجرة ،





والإنسان يبطش بقوته البدنية وبما عنده من قوة العقل والتدبير،  
فيخترع العُدَد والأسلحة ويصيد ما شاء من ضواري الحيوان وكواسر  
الطير ولو بعيدة عنه، وإذا تجرّد من إنسانيته جرّد سيفه على أخيه،  
وبطش به، وأنذر بشرّ مستطير، وهدّد سلامة العالم. ومن أجله قالت  
الملائكة للبارئ جلّ وعلا: « أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ  
الدِّمَاءَ ». واختال بقوته فخدعته وحالت بينه وبين الحقّ، فقديمًا اعتدى  
أحد أبناء آدم على أخيه « فَطَوَّعَتْ <sup>(١)</sup> لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ  
فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ». ومن ممارسته لقوته واعتماده عليها في أطوار  
حياته وعدم اكتراثه لتحرّى سبل الحقّ تسرّبت بالوراثة منه إلى  
ذريّته، فبدت في البدويّ والحضريّ وفي العالم والجاهل وفي كريم  
النفس ولثيمها « والكريم يصول إذا جاع، واللثيم يصول إذا شبع »  
على الفروسيّة وحدها معول البدويّ، فبها ينصب نفسه زعيمًا  
على قومه، ويبدّ أقرانه في حومة الوغى، ويصول على من يغمط حقّه،  
وينازل من يمسّ كرامة عشيرته ومن يلوذ به، ويبلى البلاء الحسن في  
المحافظة على شرفه، حتّى أصبح الأخذ بالنار من أقصى أمانته. بذلك  
مجدّه الناس وكرّموه وتماجدوا <sup>(٢)</sup> به وأحاطوه سويداء قلوبهم، وأكبروا  
قدره وتنافسوا في الانتماء إليه بالقرابة والمصاهرة، وعاونوه على تنفيذ  
أغراضه، وجادوا له بنفوسهم لاعتقادهم أنّ وصمة العار لا يزيلها إلا  
الأخذ بالنار، كما تزيل النار خبث المعادن

(١) سهلت (٢) تفاخروا وأظهروا مجدهم

أما سكان المدن فشغلهم حضارتهم ورفاهتهم عن المصارعة البدنية ، وعدوا عمرهم أغلى من أن يماروا به ؛ فأناخوا عنهم حكومة يقظة مسلحة ، وكلفوها الذود عنهم في الوقت العصيب ، واستعانوا بها على حماية حقوقهم ، ثم وجهوا قوتهم إلى تدليل القوى الطبيعية واستخدامها لتشييد قواعد العمران وترقية شئون الجماعات . بذلك استعانوا عن خشونة البدوي دماء الطبع وزينوا بها مجتمعاتهم ، ورفعوا شأن من تحلى بها فصارت غريزة من طول ممارستها . ولا تكاد ترى عند أحدهم من الجراءة البدنية ما تراه في البدوي ؛ بيد أن طبيعتهم الأصلية لا تزال تغلب عليهم فيتحينون الفرص للإفلات من وطأة القانون ، ويتخذون من أسننة أسننتهم وقواطع حججهم ما هو أشد بأساً من الحسام ، وإذا أعيتهم وسائل الإقناع واستمرؤوا على تعصبهم لأبيهم خرجوا من حظيرة المجادلة إلى المشادة ، فهددوا وأوعدوا . قال المتنبي في هذا المعنى وأجاد :

إنما أنفس الأيس سباع      يتفارسن جهرة واغتيالاً  
من أطاق التماس شيء غلاباً      واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا  
كلّ غاد حاجة يتمي      أن يكون الفضنفر الرثبالا

المبارزة      ومن دلائل تمجيد الناس للقوة البدنية إكبارهم لأبطال الحروب ، والمبارزة من أشد الوسائل لاحتدام الخواطر وجيشان القلوب وإضرار نار الحرب . يبرز من الجيشين بطلان للمشادة والمغاضبة ، ثم ينتصر الفريقان كل لصاحبه ظالماً كان أو مظلوماً .

وربما كانت للبارزة آخر سهم في كنانة المتحاربين ، ومفزع زعمائهم حقتاً لدماء المستميتين . فتمد دارت رحي الحرب بين علي ومعاوية بيوت فيها النفوس بالثمن البخس ، وخشى المسلمون اتساع نطاق الفتنة ، فتقدم علي إلى معاوية وقال له : « علام يقتل الناس هلم إلى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور ، وهذا مما امتاز به علي من ضروب الحكمة . ومن غلب عقله هواه ، وقلب العداوة صداقة ، والمكافأة مصالحة ، والحرب سلماً ، كان أولى بالإعجاب وأحق بالإكبار ، ومثل علي من يجود بحياته لتقليم أظفار الفتنة

وإلى عهد قريب كانت المبارزة مرجع المنازعين ياجئون إليها للفصل في أمورهم . والمتفرجون يتهافتون على ميدانها . هاتفين مصفقين لمن يحوز الفوز ، وهو يمدّ صاحب الحق في نظرهم ولو كان فيه دعياً . ولكي لا يتفاقم الشر يقف الأطباء من ورائهم لضميد الجروح وإسعاف المصاب ، ومتى شهد له الحاضرون بالفخر برد دمه الثائر ، وانثنى إلى المهزوم عاطفاً عليه متقدماً إليه بوجهه باش وصدر رحب ، ويده ممدودة للمصافحة إيداناً بأن صلة الود قد عادت ، وأوضاع الضعيفة قد اتبعت واحترقت .

والناس تلقاء هذه الغريزة صنفان : صنف بالغ في قهر غيره استرسالاً منه في مطالب هذه الغريزة ، ومنهم قدامى الإغريق ومن جرى على شاكلتهم فقد اتخذوا للحرب إليها ، وبلغ استهم تارهم بالضعفاء

حدًا ممقوتا ، ذلك أنهم كانوا يرمون الطفل من حاق<sup>(١)</sup> متى تسرب إليه المرض الذي يشل أعضاءه فيصبح مغلوبًا على أمره ، كلا على أهله وعشيرته ، عائشًا في بوائق الذل ، منذرًا بذرية سقيمة ، والحياة تتطلب الجهاد الدائم لمصارعة الشدائد والنوازل ، وما لم تحقق في الإنسان بشائر القوة فالموت خير له . بهذا وبغيره ضل أتباع هذا المذهب وغلبوا اليأس على الرجاء ، وجرّدوا قلوبهم من حلية الرأفة وهي أكبر مزايا الانسان . ينصبون الفخاخ للضعفاء ، ومتى صادوهم ارتكبوا معهم الفظائع وأذاقوهم مرّ العذاب ، وكلّموا سمعوا منهم تأوّهًا استخفهم الطرب فزادوا سرورًا ، وهؤلاء هم المردة الجبارة السفما كون لدماء الأبرياء . وصنف آخر استعانوا بالقوة لتخفيف ويلات الإنسانية ، يجودون بالهم وعمرهم ، ويتجاوزون عن حقهم في القصاص ، وما العفو إلا عند المقدرة ، فهؤلاء قد شايعوا دين الفطرة في أسنى مبادئه المبسوطه في هذه الآية « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبِلُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ ، وَكَأَنَّ صَبْرَكُمْ لَكُمْ خَيْرٌ لِلْعَصَابِينَ »

ثم كانت الرحمة المطلقة شعار فريق من الهنود ، حرّموا ذبح الحيوان استفظاعًا لتعذيبه ، واستنكارًا للنزول في الفتك إلى مستوى الحيوان ، ومن هؤلاء ، أبو العلاء المعري الذي عاش نباتيًا ، ومن شدة تمسكه بمبادئه كفّ عن أكل اللحم حتى في وقت الحاجة ، فقد روى أنه مدّ يده يوماً إلى طعام وصفه الطبيب فوجده دجاجة ، فامتنع عن

الطعام وخطبها بقوله « استضعفوك فقتلوك هلاقتوا شبلا »  
ومن يتفقد حالنا الاجتماعية يرأرر الأقوياء يهزون جهارًا  
بالضعفة ، وبنائوتهم ، ويستحلون أموالهم ، منتحلين الأسباب التي  
نحوهم ارتكاب الظلم ، وهي ديدن أهل النقيصة والإثم . وربما أيدوا  
مذهب الاشتراكية فيقولون : ما بالنا نرى الناس متفاوتين في اليسار ،  
وأخلاق بالأقوياء أن يكونوا به ممتازين . وربما استبدوا فاعتقدوا أن  
الناس فطروا على الظلم ، واحترموا الظالمين ترويحًا لمذهب زهير بن  
أبي سلمى « ومن لا يظلم الناس يظلم » ، وربما تمثلوا بقول الإباحيين  
من راقب الناس مات غمًا وفاز باللذة الجسور  
أما القوة الغاشمة فهي عارية مستردة ، يذهب بزوالها فضل  
المستندين إليها ، وانور الحق ضياء لامع ، واشدته هيبه تحرر لها جباه  
الجبارة ، فإذا ما برق امتدت له أعناق البائسين ، وساروا بهديه  
مسترشدين . إن رفع العقيرة بالحق من دون الاستنصار بالقوة  
لا يجدي ، لأن صوته وحده فاتر ، وسلاح القوة وحده قاهر ،  
وقسطاس العدل لا ينصب إلا بتناصرها وتوازرها ، ومن جاهد في  
الحياة بدونهما معًا فلا محيص من انهزامة . وكما تكون القوة بالسلاح  
تكون باجتماع القلوب ومعاوضة الأيدي وطهارة النفوس من أوضار  
الحقد ، عند ذلك يستند كل إلى صاحبه كما تستند الصخرة إلى  
الصخرة ، فيكون منهما بناء راسخ يكافح الحدثان على ممر الزمان  
الأمم كالأفراد تثيرها القوة ، فتاهو عن الحق وتستهتر بالضعيف ،

وتريد أن تحافظ على عظمتها فتشيّد الحصون وتعمّي الجنود ، وإذا سنّت ما ذا تقصد من وراء هذا ، أجابت بأن الاستعداد للحرب من ذرائع السلم ، ثمّ تخونها عقيدتها المتكفّفة فتتنصّل بسفاسف الامور اتسوّغ إصملاء نار الحرب ، فتندفع إليها من غير حساب لموافقها اندفاع السهم إلى الرميّة . ومع أنّها تعلم أنّ الحرب تجرّ الشرّ على الغالب والمغلوب على السواء ، فإنّ بوارق الأمل بالانتصار تتلأأ أمام عينيها ، والنصر معيار لقوّة الشعوب ، وعليه مدار عظمتها ونخارها . على أنّ طبيمة القهر كمينة في النفوس تظهرها القوّة ويخفيها الضعف ، والسنن الكونيّة لا تدافع ولا تعارض ، وليس للكائنات منها مهرب . والحرب من لوازم الحياة تقتضيها سنّة تنازع البقاء ، وربّما تهادت عناصر الموجودات زمناً وإمكانها تعود إلى الخصاص ، فهدتها على دَخَن<sup>(١)</sup> ، إليك الصخر الأصمّ تخرج ناره إذا قُدِح فيه ، والأشجار الكشيّفة في الأحراج تحرّ كما الرياح فتحتك فروعها بعضها ببعض وتشتهل ، وقد جاء في المثل « في كلّ شجر نار ، واستمجد المرخُ والغفار<sup>(٢)</sup> . وجوف الأرض في سير دائم يندفع ماء البحر إليه ، فإذا لمس النار استحال بخاراً تميم من زلزاله الأرض ، وتخرّ من بطشه رواسب الجبال فتدنائر جزراً ووهادا . وقد يخرج البخار من شقّ أرضيّ جاذباً معه مذوب المعادن والأحجار فتتراكم وتحدث الجبال . والماء يتأثر بالشمس فيستحيل بخاراً ، يذهب إلى الجوّ صُعداً وينعقد سحاباً ،

(١) صلح على فساد (٢) امتكثرا من النار . والمرخ والغفار كلاهما شجر الورى

ثم يتكاثف وينزل إلى الأرض ماء . والحيوان يتغلب على النبات ،  
والإنسان يسطو على الحيوان ، وعلى الإنسان تغلب عوامل الفناء  
فيموت ، وتمتزع أشلائه بالتراب ويصير غذاء للنبات ، وهكذا تنتقل  
الكائنات من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة بنظام دقيق  
لا يعتريه فتور ولا يصادفه خلل

### تشقيف هذه الغريزة

كلُّ شيء في نظر الطفل داخل في حدود الممكنات ، فإذا نال  
ما طلب فقد أبى نداء غريزة الملك واستراح ، وإلا فإنه ينضب فتتنبه  
فيه هذه الغريزة وما تنبّهت إلا لتريح أعضائه الهائجة بالصياح  
والعويل والتمريغ على الأرض ولطم الوجه وتمزيق الثياب ، ولا يزال  
كذلك حتى تخمد ناره وتهدأ ثأثرته . ومن ذا الذي يستطيع كتمان  
هذه القوة التي تنوء بحملها صدور الأقوياء ، فالعين تذرف الدمع  
تلطيفاً لحرارة الحزن ، والقلب يفرغ إلى الصراخ تخفيفاً لوطأة الفوادح ،  
وهذا ما صير النسوة أصبر من الرجال على حمل المصائب ، وما أحكم  
الخنساء فقد استدرفت الدمع عند ما نكبت بوفاة أخيها فقالت

أعيني جوداً ولا تجمداً      ألا تبكيان لصخر الندى

والإغضاء على بوادر الغضب أخف ضرراً من قمع القوة المتهيجية ،  
والعافل من يقابلها بالملاينة والملاطفة والمباحثة في أسبابها حتى يهدأ  
الخاطر النائر . روى أن ابن الراوندي قال

كم عاقل عاقلٍ أعيت مذاهبُهُ      وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا  
هذا الذي ترك الأوهام حائرة      وصير العالم النحرير زنديقا  
فهاج لسماعهما أحد الحمقى ، واستفزع صدورها من عالم دينٍ  
وهم بقتله ، فمضى قُدُماً إلى مصر وقابل ابن الراوندي عرساً ، وكشفه  
بجلى الأمر ، فرأى ابن الراوندي من الحكمة أن يتنكر ، ملتمساً له  
عذراً في هذا التعصب الذي هو من بلايا الجهل . ثم أخذ يستطاع  
رأيه فيما اعتزم عليه ، ويحادثه في شئون الحياة المعقدة ، ويطلعه على  
عجائب الخلاق ، في قسمة الأرزاق ، ويريه العالم بأئساً محروماً ،  
والجاهل منعماً قرير العين مخدوماً . وما زال ابن الراوندي به حتى أقنعه  
بصحة ما سمع من الشعر فهدأ مزاجه المضطرب

وللجماعات حماسة يبدونها في المواقف الدينيّة والوطنية تألماً من  
شيء تستنكره ، فتهيج أعصابها ويتولاها اليأس ، وتسير في السبل  
هاتفة صارخة . فإذا أرغمها حفاظ الأمن على التزام السكينة اعتقدت  
أنها صودرت في شعورها ، فيزداد ألمها ، ويقودها الانفعال النفسى  
إلى أخرج المواقف . ولا شيء أجدى من مقابلتها باللين والحلم وسماحة  
الخلق . ولا علاج أنجع للفضبان من تهدئة تأثره وتطبيب خاطره .

والطفل الشيط يوذيه الفراغ ، فيتسأط على أهله ، ويكدر عليهم  
صفاء عيشتهم ، ويستنزف ما يسلبه من أموالهم . فلى المؤدب أن  
يشغل فكره وقت الفسحة والعمل بالمسليات ، ليحول ذلك بينه وبين  
تدبير الفساد

ونفس العصبية تخبث عند الحوادث ، فتسهل لهم ارتكاب  
الجناية تصرفاً لقوة الفهر وترخص في نظرها الحياة ، حتى لقد فشا  
داء الانتحار يستشفى به المصاب بآلام النيط ، فيتعاطى السم أو  
يهوى من المرتفعات ، أو يحنى على نفسه بالحرق أو الغرق . والانتحار  
التدريجي أكثر فتكا ، لأنه استسلام إلى الأهواء التي هي حبال  
الشیطان ، والتمادي يريح أعصاب العاكفين عليها كما يتداوى شارب  
الخمر بالخر

لو بحثت لعلمت أن الغضب الجامح هو الداء العضال الذي يزعزع  
العقل عن أطواره ويزعزع أركان الجسم . وعلاجه معاملة الغضبان  
باللين ، وتوصيته بالصبر على احتمال المكاره ، وقلماً أفادت النصيحة متى  
توافرت أسباب القوة ، ولذلك توجهت عناية المؤدبين إلى توزيع هذه  
القوة في غير وجوه الضرر . فكروا في ضروب اللعب التي سنبسط  
الكلام عليها فيما بعد لتوجيه قوة اللاعبين إلى غرض مأمون العاقبة ،  
وفكروا في الملاكمة وكسوا جمع الكف بوسائد مرنة تخفف وقع الضرب  
بها ، وفكروا في المغالبة بالعصى والرماح المنمودة النصول ، لتمرين اليد  
ودفع الخطر ، وفكروا في نظام الكشف الذي راج سوقه بين  
النشء للتدريب على الخشونة والجرأة وعيشة الخلاء ، استكثاراً  
لأسباب الصحة ، واستدراة للخير واجتناباً للشر .

ما أسعد الأمم التي تضافرت أفرادها على مغالبة القوى الطبيعية ،  
فقد ذلوا تيارات الهواء والماء واستخلصوا منها قوة عنيقة ، وجمعوا

كبيراً من أشعة الشمس في بؤرة فاستحوذوا على حرارة قويّة، وافتنوا  
في استخدام الكهر بائيّة والقوّة البخاريّة، ولا يزال الفكر الإنسانيّ  
يجول في فضاء العالم منقباً عن كنوزه المستورة وقواه الدفينّة

## (٦) غريزة المحاكاة

لكلّ حيوان استعداد خاصّ في المحاكاة، فالفرد يوزعه استعداداه  
أن يحاكي الحركات البدنيّة، والبيضاء تحاكي النطق. وبالمحاكاة استعان  
العلماء، فبأموا الطيور المغرّدة ما شاءوا من النغمات، فوضعوها بحيث  
ترى صورتها في مرآة، ووضعوا وراء المرآة آلة صدّاحة، فيخيّل إلى  
الطائر عند عزفها أن طائراً آخر يغني فيهمّ بها كأنه. والحمام — وقد  
اعتماد تناول الحَبّ الصغير حتى إنّ لم يمد قادراً على ازدراد الحَبّ  
الكبير ولو أضناه الجوع — يجتمع مع الحمام الذي يتغذّى بالحَبّ  
الكبير فيندفع إلى محاكاته، وهذا سرُّ محاكاة النظير.

إنّ الإنسان في طوره الأوّل حاكي الطبيعة والحيوان فيما سمع  
ورأى وصنع، فسُمّي طائفة من الأفعال بأصواتها، وقد ورد بين  
ألفاظ اللغة العربيّة حفيف الشجر، وخشخشة الثوب الجديد، وقعقة  
السلاح، وصلصلة الحديد، وخريير الماء، وصرير القلم، وهريير السكاب،  
ودقّ الباب، وطنين الذباب، وشخب الابن عند حلبه، وكذلك بين  
ألفاظ اللغة الانجليزيّة هابل بابل Hubble - Bubble للترجيلة،

وتريك تراك Trick - Truck لانرد وهيكاپ Hiccough للفواق<sup>(١)</sup>  
حاكي المناور فبني البيوت ، ورأى الزنبار والهدهد بجمصان عشاها  
فطلى بيته بالحص ، ورأى الذئب يقع في الغنم فتعلم الصيد ، وحاكي  
الليف فذسج الشباك على منواله ، وشاهد الحبة تسقط على الأرض  
فتنتب وتموحتى تصوير دوحه ، فحاكاها بالزراعة . وحاكي زخارف  
الطبيعة فنقش على الخشب والحجر ماراقه من النبات والزهر والحيوان  
والإنسان . وحاكي تغريد الببليل فغنى . وحاكي أخاه الإنسان في  
الترتيل والشعر والخطابة والملبس والصناعة وهكذا .

## المحاكاة والحاجت اليها

يبتدىء الطفل بالمحاكاة في الشهر الرابع من عمره ، ويزداد بها  
غراماً كلما تقدّمت سنّه لهيامه بتمرّف الموجودات التي يجهلها ، وسبيله  
الواحدة لذلك هي جنوحه لمحاكاة النظراء ، ومحاكاة كلّ ماله تأثير في  
نفسه . يرى الفرس تمدو فتدفعه غريزة المحاكاة إلى ركوب عصاه .  
ويرى القطار فيجتمع مع إخوانه ويحاكونه .

ولحاستي السمع والإبصار مجال عظيم في المحاكاة ، لأنهما ينتقلان  
إلى المنح أثر المحسّات ذات الوقع الحسن فيحاكيها بصورة طبق  
الأصل . ومن هذا تعلم ضعف الأوامر المعنوية لصعوبة محاكاتها على  
ذهن الأطفال .

(١) ربح تشخص من الصدر

اقتفاء أثر الصالحين  
والولوع به

واعلم أنّ ضرورة الاجتماع تلجئ الإنسان إلى اقتفاء أثر سلفه  
ومعاشريه ومحاكاةهم ليحافظ على العادات القومية ، وليتآزر بهم في  
قضاء مصالحه . كان عمر بن الخطاب ورعا يحب المتقشفين ، استدعى  
يوماً أبا موسى الأشعريّ ومن يليه من العمّال للمثول في حضرته ،  
فانطلق أحدهم وهو الربيع بن زياد الحارثيّ إلى مولى عمر ، وسأله عما  
يروج عند عمر وينفق عليه ، فأشار إلى خشونة العيش ، فمضى ولبس  
جبة صوف وعمامة دسما<sup>(١)</sup> وخفّاً مطابقاً ، وحضر بين يدي عمر في  
جملة العمّال . فصوّب عمر نظره وصعدده فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله  
عن حاله ، ثمّ أوصى أبا موسى الأشعريّ به . فهذه الخطوة ما جاءت  
إلا من رائع تأثير المحاكاة ، وقد ورد « الأرواح جنود مجنّدة ،  
ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وفي المثل « لولا  
الوثام ، لهلك الأنام »

الجمود

وإنّ أدنى أنواع المحاكاة ما حوفظ به على الأصل بدون تعرّف  
ولا إتقان على النحو الذي يتبعه صنّاع الفخّار في قنا . عادة ألفتها  
الأمم الساذجة ووضعتها موضع الاحترام . زرت مصنعهم يوماً ، ولما  
رأى بعضهم أن الشك داخلني في مقدرتهم الصناعية عمد إلى طين  
وسألني أن أقترح شيئاً يصنعه ، ثمّ انبرى فصنع طستاً وإبريقاً يجمعان  
إلى دقة الصنعة رقة الذوق . ثمّ أعادها إلى عجيب كما كان ، ولم يرد أن  
يدخل على ما ورثه من أسلافه شيئاً خوفاً عليه ، كأنّ بدعة الصناعة

من البدع الدينية التي لا يسوغ إدخال التعديل عليها .  
وإذا وصفنا المحاكاة بأنها من دعائم الحضارة وجب علينا أن  
نفسر ذلك بضرورة الاطلاع على المحاكى وبمخه وتمحيص أدلته ،  
لتندفع النفس إلى محاكاته بوازع صادق . والمحاكاة روح توثق الرابطة  
بين الفرع وأصله ، ومن هنا نشأت محبة المحافظة على القديم . وقد  
تغلو الأمة في احترام قديمها فتقتصر على ما أوصلته إليها الوراثة ،  
وتنفض الطرف عن التغيير الذي تدعو إليه الطبيعة وأطوارها ، فتكسد  
بضاعتها ، وتبور صناعتها ، ويسل عليها الدهر سيف الحرمان ،  
وتبطش بها عوامل الفناء .

ومن أمثلة الجمود والغلو في حب القديم والتحيز لمذهب « ليس  
في الإمكان أبدع مما كان » ما روى أن أحد الهنود الذين يحرّمون  
قتل الحيوان وأكله ، قد باحثه عالم ألماني وأراه بالعيان نقطة من الماء  
الذي يشربه تحت المنظار ، فتخيلها لكبرها غديراً من الماء ، وقد  
اكتظّ بالهوامّ السابحة فيه ، فلم يقتنع الهندي بما رأى بعينه ، وسخر  
بقول هذا العالم ، وكسر المنظار إصراراً على الباطل وعناداً للحق .

وقال كيبيري<sup>(١)</sup> : « إن طالباً تعام في أديار القرون الوسطى  
وصل إلى سمعه كشف كلف معتم في كرة الشمس فدهش وقال :  
علم الله لو أنك قرأت بإمعان كتب أرسطو لوجدته وصف الشمس  
بأنها كوكب لا يمتري نوره ذبول . فما أبعد مسافة الخلف بين هذه

(١) كيبيري من رجال الحركة العلمية بفرنسا الآن

الحقيقة ومزاعم المستكشفين ! عليهم أن ينظفوا عدسة المنظار من أثر الغبار ، ثم ينعموا النظر لعلمهم يبصرون الحق جلياً . أما إذا أخطأ بصرهم وشاهدوا ما شاهدوه أولاً ، فليعلموا أن الكلف الذي رأوه إنما هو سحابة تفتى أعينهم . فما بال طالب العلم في الجيل الثاني عشر من الميلاد قد تمسك بقول أرسطو نابذة القرن الرابع قبل الميلاد ، ولم يحفل بتجارب ستة عشر جيلاً ترقى في غضونهما العقل الإنساني ، وتقدم العلم ، وكشفت التجارب عن حقائق كانت مستورة ! ما باله نظر إلى المشاهد ومحضها بعقل غيره ، وأهمل عقله من النظر ، وعاقته الثقة بالمتقدمين عن استجلاء الحقائق ، ولو كانت أعيننا تراها ، والمراسد الفلكية تساعدنا ، أليس يدل ذلك على أنه اكتفى من البحث بالمحاكاة العمياء ، وقضى على مواهبه ، وعظّمها من التنقيب .

وللمثال الحسن تأثير رائع في تثقيف الطباع ، فالطفل الذي ينشأ بين أبوين فاضلين يحاكيهما ، ويقتبس منهما لطيف القول ودقة الذوق وحسن الصنع وكمال البرّة ، وهو بعينه إذا عاشر منحطى الأخلاق سرت إليه روح العدوى من طريق المحاكاة . نعم للقدوة الصالحة تأثير مجيد في النفوس ، ألم تر أنها نقات أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من رعاة أغنام إلى ساسة عظام ، رفعوا منار العدل ، ونصروا الحق ، وأحيوا موات العلم ، وفجروا ينابيع الثروة . ومما روى أن جنود واشنطن رئيس الممالك المتحدة افتنوا به ، ففتحت لهم أحكام الفتوح . ولما قام نذير الحرب بين الممالك المتحدة وفرنسا ، استعار خلفه لنفسه

تأثير المثال الحسن

اسم واشذنون وجرى على سننه ، فسرت في العروق روح الحمية  
والإقدام ، وكان النصر حليف جيشه .

التنويم المغناطيسي — الاستهواء — يوقظ غريزة المحاكاة من  
سباتها فيخضع المنوم لإرادة المنوم ، ويطيعه بلا شعور ، ويحاكيه  
بلا تبصر ، وحوادث التحقيق الجنائي برأت شركاء بعض المجرمين ،  
لأنهم كانوا عند افتراء الجرائم مسلوبى الإرادة .

لا نريد أن يحترف المعلم بمهنة الاستهواء ، وإنما نريد أن يكون  
كبير النفس ، حسن الطوية ، نافذ الرأي ، قدوة في القول والفعل .  
ولمّا كنت عرفت قصة الأعرابيين النجديين نابر ودابر . كان نابر صالحا  
تقيا ، وكان دابر شريرا سمجا ، فسنتحت الفرص يوما لنابر أن يركب  
جواده وكان عزيزا لديه ، فمرّ في طريقه على دابر وقد لبس ثياب  
الضئف والمسكنة ، فلهما رآه رقّ لحاله وترجّل وطلب إليه أن يركب  
الجواد . وعند ما تسأم دابر زمابه — وكانت نفسه تتطامع من قبل إلى  
استلابه — ساقه مسرعا ، ناركغا مالكة يتفطر فؤاده حزنا على جواده  
المغصوب ، وجميله المسلوب ، فناداه نابر « ألا فاقرب منى — أيها  
الأخ — ولا أريد أن أشقّ عليك باسترداد جوادى ، غير أن عندي  
لك نصيحة ولا إخالك إلا عاملا بها ، إنى أرجو ألا تذكر لأحد  
ما فعلت معى ، خشية أن تشجّ يد الكرماء ، عن بذل العطاء ، إذا هم  
سمعوا هذه الإساءة إزاء فعل الجميل ، هنا لك صُعبق دابر من هول

جريته ، وندم على ما فرط منه ، وردّ إلى صاحبه جواده ، فما أبلغ تأثير هذا الكريم ، في نفس اللثيم !

ولنا من أبي نصر الفارابيّ مثال حسن يدلنا على ما كان له من روعة التأثير في عقول جلسائه . فقد نبغ في درس اللغات حتى عرف منها أكثر من سبعين لساناً ، وزاد فعرف كيف يخلب عقول الناس ويملك زمام عواطفهم بإرادة صادقة وبراعة في إيقاع الألحان الموسيقية . حضر يوماً مجلس سيف الدولة وكان المغنون يعزفون نخطّاهم الفارابيّ ، ثمّ اجترأ وتناول المعزف وركب عيدانه وعزف فضحك الحاضرون جميعهم ، ثمّ ركبها تركيباً آخر وعزف بها فبكوا جميعاً ، ثمّ ركبها تركيباً ثالثاً وعزف فناموا حتى البوّاب ثمّ تركهم وانصرف .

وبدلك على حبّ روسو للطبيعة المجردة من زخارف الصناعة المحاكاة في الرسم أنه كلف تلميذه أن يحاكيها بالتصوير من دون نظر إلى المبادئ التي وضعها علماء الفنّ . وهؤلاء يفضلون البدء بمحاكاة البسيط من الأمور كالخطّ المستقيم وأوضاعه وأشكاله ، حتى إذا تمّ له ذلك ركب منه ما شاء من بدائع الكون . وأدنى درجات الرسم ما جاء من باب المحاكاة البحتة بحيث لا يسمح للطفل أن يزيد عليه شيئاً ، ليختبر جولان نظره ، واعتمادَه بجعل الصورة مطابقة للأصل ، واعتماده على تمرين العين على النِسَب بين بعض الأجزاء وبعضها وبينها وبين الكلّ . وتلى تلك درجة يراد بها تمرين الحافظة والذاكرة ، كأن تعرض الشكل على الطفل ، حتى إذا شبت منه نفسه لفت عنه

نظرة ، وانطلق يجمع في رسمه ما عسى أن يكون وضعه وشكله ، وهذه الدرجة تختلف باختلاف قدرة ملاحظته على ضبط الرثيات .

في ليلة عاشوراء اعتاد الفرس أن يحتفلوا بموكب لهم في مصر حداداً على وفاة الحسين بن علي . وفي أثناء مروري شاهدت رجلاً يجول بين المارة شاخص العينين ، مستطلعاً حركات الواقفين وأزياءهم ، مترقباً أوضاع المشاعل التي يسير القوم في ضوئها ، وإذا هو مصوّر توجّهت نفسه إلى درس عناصر هذا المشهد ، ليفرغه في قالب الرسم من حافظته .

وفوق هذه الدرجة مرتبة من أحرزها فقد برع وعد من كبار المصوّرين ، وعماد هذه المرتبة على قدرة الخيال على تصوير المعاني وإلباسها ثوباً حسياً يوحى إلى الذوق اختيار ما يكون له حسن الوقع وعميق الأثر ، فتراه يقرأ الحادثة التاريخية ، ثم يرقها على القرطاس برسم يشف عن معانيها ، ويجمع من رموزها طرفاً لا يستعصى على اللبيب فهمها . يستطيع الرسّام والحفّار تصوير المعاني الحقيقية والخيالية كما يستطيع الكاتب أن يصورها ، غير أن الأولين يمتازان بأن لهما يفهما الناس على السواء . ومن بارع الخيال الذي يتم عن الحقيقة أن نأثراً صحافي با كورة يوم صافى الأديم عليل النسيم ، فاختر لهذا المعنى تمثالاً نقشه على صورة صبي غائص في نوم عميق . وابتكر مصوّر مشهداً للبوّس فتخيّل قافلة تسير في البیداء وقد اشتدّ المرض برجل منها فتخلف عنها . غير أن رفقاءه قبل أن يتركوه قيّدوا جملة

بجواره ، فلم يلبث الرجل أن مات ، أمّا الجمل فقد تقطعت أحشائه  
من ألم الجوع والمطش واشتداد الحرّ ، وأقبلت إليه ضواري الوحش  
وكواسر الطير وصارت تتداني منه كلما لحظت فيه الضعف ، والجمل  
المسكين ينظر إليها نظرة الخائف ، ويستسلم لبطشها استسلام  
الضعيف ، تدوب نفسه حسرات عند ما يلوى رقبتة ايراقبها ولا  
يستطيع دفع الشرّ . كان تيمورلنك أعور أعرج ، وكلما رأى صورته  
على حقيقةها استشاط غيظاً وأوقع الأذى براسمها ، فرسمه مصوّر  
منهيئاً للصيد ، جالساً على إحدى ركبتيه ، مصوباً بندقيته ، ناظرًا  
إلى الهدف بين واحدة ، فكانت براعته في اختيار هذه الفرصة من  
دواعي استحسان الصورة بوضعها الحقيقيّ

المحاكاة في صناعة  
الانشاء

وقد طالب معام الإنشاء أن يحاكي الطفل النماذج الأدبيّة بين  
منثور ومنظوم ، يحفظها ويستذكرها ويرتلها ويمثلها محاكيًا واضعها ،  
ثمّ ينتقل به درجة فيطالبه بمحاكاة معناها متصرفًا في ألفاظها وتراكيبها  
بنثر منظومها أو نظم منثورها . ومن مباشرة هذه المعاني وإبداء القدرة  
على أدائها والتصرف فيها على النهج الذي يرتضيه البلغاء ولا ينفر منه  
الأدباء ، يحصل للخاطر افحاح ، وتتربّي عنده ملكة الإنشاء ، وبها  
يترسل في الأغراض ، وتأتي إليه المعاني متدفقة بدون تكلف .

المحاكاة في اللغة

والفيور على نشر اللغة العربيّة يذيع استعمال المفردات الفصيحة ،  
والأساليب الصحيحة ، بطرق المحاكاة اللفظيّة والكتابيّة ، وبهض  
الناس أقدر من بعض على ولوج سبل التأثير ، وليس بمعجب أن يتهيأ

لأحدهم أسلوب دون أسلوب فلان مع كثرة ما يحاول من محاكاته ، لأنه يحمل بين جنبيه سرّ هذا الإخفاق . والإنسان بعد الإيمان يستطيع أن يستوضح أوصاف الكتاب من أسلوب كتابته ، حتى لقد بلغ الحدّ عند بعضهم من شدّة حذقه واتّساع نطاق اطلاعه أن يميز أسلوب الكتب المخرومة ويمزوها لمؤلفيها ولا يكاد يخطئ .

### متى تحصل المحاكاة ؟

إنّ الجذل والسرور من الشيء يدفعان النفس إلى محاكاته ، ومتى وصلت صورته إلى العقل نهض للموازنة بين النموذج وما تؤدّيه الأعضاء ، والتمرين كفيل باستيفاء ما بينهما من الشبه . وقد يكون وازع المحاكاة محض الاحترام ، إذا بلغ النموذج من السكّال مرتبة الملوك والقواد العظام ، يفهمان هذا فيطرقان سبل الإصلاح متّخذين من قوّة المحاكاة عضداً قويمًا ، وسنداً عظيماً ، قيل إنّ جاء الملكة الكسندرة ( ملكة الانجليز ) وفد من الفلاحين يستغيثون من ضرر دويبة تختفي في الأرض ، وتتغذى بجذور النباتات فيذبل . هنالك أمرت الملكة بصنع معطف لها من فرو هذه الدويبة ، وما رآته الأوانس دناراً للملكة حتى تنافسن في لبسه ، وتنافس الصيادون في صيده ، وكانت محاكتهنّ للملكة سبباً لقطع دابر هذا الحيوان ؛ وذوق الملكة على كلّ حال ، هو نموذج الجمال بدون جدال ، والناس لتعلقهم بالعظماء يحتذونهم في اللبس والسير والحديث والكتابة .

وللمعالم الكف في نفس تلاميذه هذه المنزلة ، بما كونه في كل عمل يفعله لا اعتقادهم أنه لا يختار إلا الأصلاح ؛ إذن يحق له أن يتجنب الشبهات التي ربما أولها المتساهلون ، وحاكوه فيها فيضاً . تأمل تحرّز سقراط قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيه ، وقد أبقى قبول نصيحة صديق له بالهرب من السجن ، والنجاة بحياته إلى حيث يعيش عيشة سعيدة ؛ نفر من هذه النصيحة خوفاً على سمته أن تشوّهها معرفة الفرار من وجه القضاء ، وكراهة أن يتأولها أتباعه من بعده فيسوّغون الهرب لأنفسهم ويحكمون به ، ويفتحون على الأمة من طريق المحاكمة باب الضلال والشروء .

محاكاة المعلم

رأى بعضهم أن المحاكاة يشتدّ وازعها إذا أسنّ المعلم ، وزادته الأيام خبرة بالأمر ، وعرك الدهر في حالي لينه وصلابته ، واتسع عنده أفق العلم الصحيح ، وفهم الطبع البشري في أطوار الحياة من الشبية إلى الكبر حتى صار أصحّ رأياً ، وأكثر عطفاً ، وأقوى حجّة ، وأرسخ في العلم قدماً ، وأمضى في التجارب عزمًا . هؤلاء يمتقدون أن الآباء غالباً يزلون عند تعليم أبنائهم بأنفسهم ، لما اشتمل عليه وجدان الوالد من الحنوّ ، ومطالب التعليم تستدعي الجفاء أحياناً ، أوللتسامح الذي يتوقمه الولد متى قصّر في أداء الواجب وخرج به العصيان عن الجادة ، أو لأن فرط محبة الوالد لولده توزعه أن يركب معه متن الشطط ، ويكلفه ما لا يطيق غيره عليه ، أو لأن الوالد لا يجرؤ أحد أن يتناول عليه مستعينا بالقانون في الإضرار به إذا

محاكاة الطاعنين  
في السن

هو أفرط في عقاب ابنه .

ورأى آخرون أنّ صغار السنّ من المعلمين أنفذ حكماً ، وأقوى محاكاة النظير في الطفل أثراً ، وأملك لزمام إرادته ، وأكثر معرفة بميول النفس ، لقرب العهد بهم ؛ فإذا انصرفت همّتهم لدرسها كان نصيبهم منها أبلغ من نصيب الكهول ، وأغنام ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التي يمتاز بها المعمرون ؛ وأنّ مهمة التعليم في الطور الأوّل ينبغي أن يُسأَمَ زمامها إلى النساء لما عندهنّ من العطف والصبر والقدرة على فهم أساليب الطفل وتيسير التنزّل إلى أفقه .

يطرد هذا في أنثى الحيوان ، فالدجاجة تلاحظ أفرأخها وتلقنها الإرشادات بقوّ قائها ، والعصفورة تعلم صغارها الطيران بعد تكامل ريشهنّ فتخرجهنّ من العشّ ، وتطير أمامهنّ وتستحيّهنّ على محاكاتها ، حتّى إذا قعد بهنّ الخوف عن ذلك خففت لوعتهنّ وحرصتهنّ على الطاعة بالزقزقة أو النقر .

وللتلاميذ بعضهم في بعض تأثير لا يستهان به ، فطن إليه أرنولد<sup>(١)</sup> في الجيل الماضي فقرر أنّ كبار التلاميذ يدرسون في باكورة النهار نصيبهم من نظريّات العلم ، ثمّ يتولّون بعد ذلك تعليم الصغار من إخوانهم تطبيقاً للعلم على العمل . وسواء ألاحظ التأثير البليغ أم

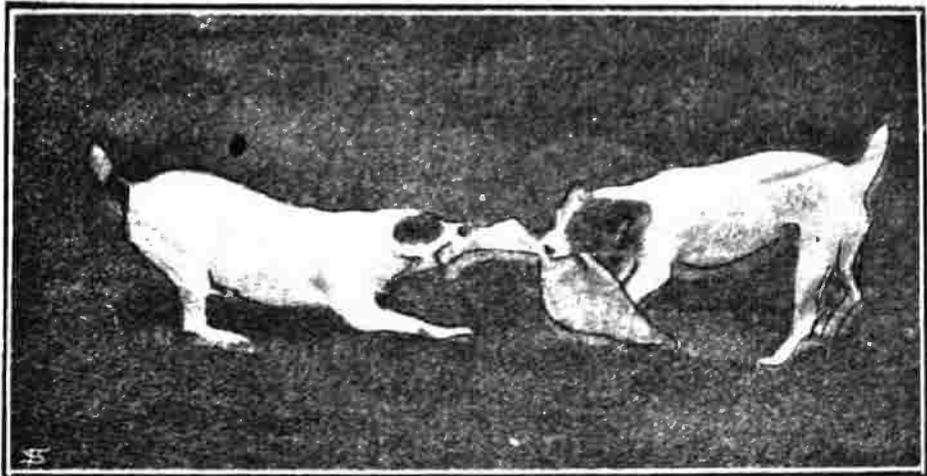
(١) توماس أرنولد Arnold توفي سنة ١٨٤٢ كان ناظر مدرسة ثانوية

في إنجلترا أدخل فيها ماشاء من النظام حتى ذاع صيتها . واشتهر طلابها بالرسوخ في الأدب وحرية الفكر في المسائل الدينية والسياسية

الاقتصاد في الإنفاق فإنَّ طريقته وجدت من النفوس مكانا ، وسعى  
المربون جهدهم في تقليل معايها .

حدّثني ناظر مدرسة أنه كان يباشر تعليم ابنه لصغر سنّه ، وكان  
به شفيقاً متسامحاً ، وافرط رحمته إيّاه كان ينتصر له إذا نازع غيره ،  
ويميل إلى جانبه تنشيطاً له ، فأطمعته هذه الرأفة في الأذى والعيب  
بالحقوق . رافقه مرّة — وقد توجه والده إلى صفوف التلاميذ الواقفين  
في ساحة المدرسة — فرأى منظراً عجيباً ، رآهم عند ماشخصوا إلى والده  
هدوا وخشعوا ، ورفقوا أيديهم إلى الرؤوس احتراماً له ، وتجلّت فيهم  
الطاعة بأجلى مظاهرها ، رأى الطفل هذا كله ، وأخذت المحاكاة  
تجرى مجراها ، وما لبث إلا قليلاً حتى تغيّرت أطواره مع أبيه ، وصار  
من الأخلاق على جانب عظيم ، وهذه ثمار تأثير الشيء في نظيره .  
« إن الحديد بالحديد يفلاح »

## (٧) غريزة المباراة



يهوى الحيوان والإنسان مباراة الأقران للفوز عليهم ، ولا يعتدُّ بما يعانیه من المشاق في سبيلها . فالدابّة تسير وحدها وتجهدها المسافة القصيرة ، حتى إذا سارت غيرها من الدوابّ تحمّلت ما لا طاقة لها به من الجهد ونسيت آلامه رغبة في المباراة . بيد أن أصائل الجياد لا همّ لها إلا أن تنطلق كالسهم إلى الرميّة سواء أسارت وحدها أم سارت غيرها ، كأنها تجرّد من شخصها مناظرًا تباريه على سبيل الخيال . قال المعريّ :

ولمّا لم يسابقهنّ شيء من الحيوان سابقن الظلالا  
والطفل كثيرًا ما يتفق هو وإخوانه على المباراة عدوًّا في ساحة  
المدرسة ، ثمّ ينسى حدود قدرته على الجرى ، ويصرف قوّته كلّها في  
مبدأ الشوط ، فيفتر نشاطه وتخور قواه قبل الوصول إلى قصب السبق  
« إنّ المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى » . وقد تخونه نفسه فتنزله  
في ميدان المباراة قبل موازنة قوّته بقوّه نظرائه

وإنّ من حارب من لا يقوى لحربه جرّ إليه البلوى  
وكم ينهض الإنسان وحده لإدراك أمنيّة توج في صدره ويثوب  
منها بصفقة الغبون ، فلا يحزن على فشله حزنه إذا بارى غيره وفشل  
في إدراك غرضه .

### الحاجت إلى المباراة

أصبحت المنافسة أساسًا لجلال الأعمال ، ومفتاحًا لأبواب

المعالي ، ولا يكاد يخلو منها ميدان . تطرح المسائل على بساط البحث  
فيتبارى في حلها الأ كفاء ، يقيم أحدهم الحجّة على دعواه ، وينقضه  
الآخر بالدليل ، ولا يزالون في أخذ وردّ وجهاد وجلاد ، حتى تنجلي  
عن سماء الحقيقة غيوم الشبهة . يقرأ الناقدون المؤلف وينعمون النظر في  
قضاياها ، ويسبرون غور علاقتها بالحقائق ، ولا ينتهون منه حتى يكونوا  
قد قتلوها بحثاً وتمحيصاً ، ويميزوا صوابها من خطئها ، والحقيقة بنت  
البحث . والمصانع تتبارى في إجادة السلع وتخفيض أثمانها فيزداد  
المبدعون بيعاً والمُعجبون بها شراء ، كأنّ الهمم مغبوءة في الصدور  
تظهرها المباراة وتشحذها المشاركة ، ولهذا رجحت كفة التعليم في  
المدارس عليها في المنازل .

## آراء المرابين في غريزة المباراة

( ١ ) حتم اليسوعيون استعمال المباراة لما فيها من تقويم مُعَوِّج  
الفطرة ، وضربوا صفحاً عما تجرّه من عوامل الحقد ، وقطع أواصر  
الإيحاء . وغلوا فأباحوا من أجلها التجسس بل جعلوه داخلاً في مضمون  
المباراة ، لأنّ التلاميذ أعرف من غيرهم بما يفشو بينهم من الرذائل ،  
فاذا تسابقوا في إظهارها للمعتمدين تسنى لأولى الشأن أن يعالجوها .  
وقد شدّدوا النكير في العقاب البدنيّ تشنيعاً للخطيئة ، حتى كان لهم  
في المدرسة جلاد لإفناذ العقوبة .

رأى اليسوعيين  
في المباراة

(٢) ورأى الأمريكيون نقيض ما قرّر اليسوعيون ، وعارضوا رأى الأمريكيين في المباراة  
مذهبهم مصرّحين بأنّ الفطرة خير محض على النهج الذي شرحناه في هذا الكتاب : رأوا أنّ المباراة تنطوي على رذيلة الأثرة وعلى بغض القرناء ، وليس بين المتنافسين والمتحاسدين إلا حجاب رقيق . يعرف هذا من قصر به السعى عن الفوز في ميدان المسابقة ، فإنّه يحمل في نفسه الضغينة لمنافسه ، ويودّ لو تبطش به المسكاره ليخلو له الجو ، معتقداً أنّ الغاية تبرّر الوساطة . وقد بلغت كراهم فيها أن جرّدوا منها نظام المدارس ، فمنعوا الدرجات وتقدير المكافآت ، وقرّروا من مذهب الاشتراكية : أنّ الناس كلهم سواسية .

قد اتّبع مذهبهم هذا أحرارُ المصريّين إذ نادوا بإلغاء الرتب والأوسمة فقد قال زعيمهم<sup>(١)</sup> : « كفى الناس أن يكونوا مختلفين في الصور الطبيعيّة والمواهب المعنويّة ، فليس من حسن تدبير الأمم أن تزيد هذا الخلاف بأيدينا ، ونوسّع دائرة الفروق فيما بيننا . إنّها (الحكومات الملكيّة) تفرّق بين الناس في معنى الشرف ، مع أنّه يكفي في أن يكون الإنسان شريفاً ألا يكون قد ارتكب فاحشة مبيّنة . تأتي هذه الحكومات إلى الشرف الذي هو أظهر معنى استوى الناس فيه ، فتجمعه طبقات لا لعلّة ظاهرة ، ولكن لمجرد الجاذبيّة ، كأنّها تعمل على التفريق بين المتشابهين ، فتعطي زيدا رتبة تكبر بها اسمه ونفسه ، وتعطي عمراً نوطاً يزيّن به صدره ويعلى

(١) أحمد لطفي السيد بك في الجريدة يوم ٣٠ مارس سنة ١٩١١

قدره ، وتحرم الثالث كل ذلك . فلا ندري أنشكو الطبيعة في تفضيلها  
بعضاً على بعض بالخلقة والمواهب والميول ؛ أم نشكو الحكومة لتفضيلها  
بعضاً على بعض بالألقاب والأنواط ؛ أم نشكو الحظَّ الإنسانيَّ الذي  
جعلنا تحت رحمة الطبيعة مرّة ، وتحت رحمة الحكومة مرّة أخرى ؛  
كلتاها تشرّ شهواتنا ، وتجرحنا من جهتنا الضعيفة إلى حيث تُفسد  
علينا أخلاقنا . وتنصّ علينا عيشتنا ، وتجعلنا دائماً كارهين لهذا  
الوجود المحبوب .

هذان رأيان إذا أنعمت النظر فيهما وجدتهما جاوزا حدَّ  
الاعتدال ؛ غلا المذهب الأوّل في جعل المباراة عماد الفضائل ،  
وأفرط الثاني في اعتبار المباراة ذريعة الرذائل ؛ والحقيقة أن المباراة  
ككلّ شيء لها فضائل ومثالب ، فهي إذا أحسنّا استعمالها بشير  
السعادة ، وإذا تفلغلنا فيها نخرجنّا عن الجادّة كانت نذير الشقاء وعامل  
التفريق ؛ والعاقل يجعلها كالنار تفيده في الدفء والطبخ إذا أوقدها  
بحكمة ، وتحدث لهيباً وحريقاً إذا أشعلها ولم يُعنَ بالاحتراس منها ؛  
أو حرارة القلب إذا اعتدلت حفظت للجسم الصّحّة ، وإذا زادت  
صارت حُمى تنهك القوى وتبيد الحياة .

المكافآت

ولا يصحّ أن تقرّرها مذهب متطرّف في الأحرار من دون أن  
نردفه برأينا في فضل المكافآت بمنح الألقاب والأوسمة ، فقد نظروا  
إليها بعين الكراهية ، ونفروا النفوس منها بحجّة أنّها تهيج شعور  
الفوارق بين الناس ، وتقضى على ما ينبغي أن يكونوا متخالفين به

من وثام ، مخالفين أحكام الفطرة في تمييز الناس بعضهم من بعض  
قوة واقتدارا

إن الله تعالى اقتضت مشيئته أن يختلف الناس في مواهبهم  
وأقدارهم وأرزاقهم ، فترتب على هذا التخالف تفضيل بعضهم على بعض  
بحكم لا محيص عنه ، فكان منهم الأمير والحقير ، والعالم والجاهل ،  
والفقير والغني ، والمسرف والمقتصد ، ودرجات كثيرة متوسطة بين  
هذه الأطراف ، ليكمل بذلك عمارة الكون ، ويخدم الناس بعضهم  
بعضاً في شئون الاجتماع ؛ وبغير ذلك لا يستقيم عدل ، ولا تسكن  
ثورات ، ويقع الناس في المشاكل ، لانعدام الوازع الذي يجعل للقوى  
سلطاناً على الضعيف . وقد ورد في الأثر « لا تزال الناس بخير  
ما تباينوا ، فإذا تساوا هلكوا » .

هؤلاء الأحرار ينازعون في أننا نسلم النابغ بسمات الفضل ،  
ونفاخر به ونلقبه بلقب السادة العظام ، ونخلع عليه رداء النبلاء ،  
ونزين صدره بوسام ليست له في ذاته قيمة ، وإنما قيمته في الدلالة  
على ما يشير إليه من جد وأمانة وإخلاص . ولو أننا حرمانا النوابغ من  
ميزة يعرفون بها فهل يستطيع كتمان الفضل ؛ أليست للفضائل السنة  
فصيحة ناطقة يفهمها الأذكياء ؛ وأية طريقة تتبع لتسجيل هذه  
الفضائل في بطون التاريخ والإشادة بذكر أربابها ؟

هؤلاء الأحرار غالبوا الفطرة فغلبتهم وأنسهم العمل بما يعتقدون  
فأصبحت تجدهم مدعويين بالألقاب ، لا بسين أوشحتها ، متنافسين

في التحلى بها ، متطامن إلى المزيد منها ، مستنكرين على الزعانف  
والجبناء والبخلاء أن يقفوا في مستوى الكبراء والشجعان والأسخياء .  
فاذا كانوا في هذه العقيدة قد جاروا الأمريكيين في نبذ الرتب  
والأوسمة ، فهلا سمعوا أن الأمريكيين أنشئوا الآن نجمة ينعمون  
بها على الضباط والجنود ؟ إنه لا معنى لإغفال المكافأة وغمط فضلها  
في تشجيع النفوس ، وإذا لم تقدر بها الكفايات ضاعت من بين  
أيدينا العوامل التي تستحث القرائح وتذكي الهمم . ولا تكون المكافأة  
صادقة إلا إذا وافقت مزاج الشخص المزمع بها عليه ولم تتنافر مع شئونه  
المعاشية . فكافأة الغيور الفقير برتبة ربما تكون سبباً في انقباض  
صدره فيجرؤ على رفضها غير ملوم ، فقد سمعنا عن عظيم رُشح لرتبة  
رفيمة فاعتذر عن قبولها ، لعدم الاستطاعة على النهوض بأعبائها ،  
فقد تلزمه العادة القومية حينئذ أن يقبع في منزله ، وأن يتحشم في  
مجلسه وحديثه ومطعمه وملبسه ، وهذا يضيق عليه مسالك الحرية  
الفسيحة . ويفاق عليه أبواب الراحة والطعام أيننة . كم يكون هذا العظيم  
سعيداً هنيئ البال لو زيد راتبه أو نفع ببدرات المال على النهج الذي  
ارتأته الحكومة صواباً بإسداء ثلاثة آلاف جنيه للرحالة المصري  
أحمد حسنين بك ، تقديرًا للجهود المشكورة التي تبشمتها لارتداد  
صحراء لوبيا ، وقد كانت من قبل معدودة من بين مجاهل إفريقيا ،  
ويغاب على الظن أنه لولا هذه الرعاية ما كان في الإمكان التعرض  
لمخاطر تلك الرحلة .

غير أننا لا ننكر ما تحدثه المكافأة في ذوى النفوس الصغيرة من العجب والصلف والكبرياء والغرور ، فيشمخون بأنوفهم على إخوانهم ، ولا تطيب حالهم إلا إذا تحشم الجلاس في حضرتهم ، وقرنوا أسماءهم بألقاب العزة والمعظمة ، وهوّلاً ، لا يصح أن يبنى على أحوالهم حكم متين .

أما ذوو النفوس الكبيرة فيزدادون بالنعمة عطفاً وتواضعاً ، ولا تزيدهم الرتبة أو الأوسمة إلا اعتقاداً بأنهم نالوها جزاءً على سموّ أخلاقهم وطيب طباعهم فيدفعهم ذلك إلى التوغّل في الكمال .

رأى روسو  
في المباراة

( ٣ ) رأى روسو أنّ المنافسة تُمدح وتذمّ من وجهين : فتُمدح لأنها تدفع إلى الجهاد في ميدان الحياة ، وتذمّ لأنها تحدث الجفاء والقطيعة ، وتمكّر صفاء الولاء بين الإخوان . والفضائل كلّها أوساط بين الأطراف .

طرق روسو باب المباراة من وجهين ، مع العلم بأنّه فضلّ التعليم الفرديّ على التعليم المدرسيّ .

أولاً — حتّى « إميل » على مباراة المعلم ، على شرط أن يتنزل المعلم إلى درجة تزيد قليلاً على الأفق المناسب للتلميذ ، ولهذا الزيادة يستنهضه بالمنافسة في أمر هو داخل في حدود قدرته . وأنت خبير أنّ المبتدئ يفرح إذا رأى الفرق بينه وبين معامه يسيراً ، وينقبض يأساً ، ويزيده الخيال تعسا ، إذا رأى معلمه أسبق منه بمراحل ، ومن نتائج هذا اليأس نِفار الذهن من المحاكاة

عهدنا الطفل يَصْمُتُ أحياناً عن الإجابة عن سؤال يلقي عليه ،  
وامل هذا قد نشأ من خوفه التعرُّف في أذبال الخطأ ، عارفاً غزير علم  
معلمه ، معتقداً أنه نزه عن الغلطات كثير الحسنات . فإذا رأى  
معلمه أخطأ مثله ، ثم عاد إلى خطئه فأصلحه ، واسترشد برأى العقلاء  
لرتق الفتق ، وتلمس مواضع الصواب ، أفتظن أن خوفه يمارده ؟  
كلا . بل يظهر فيه مقدار كبير من الإقدام والصراحة والاجتهاد .  
وثانياً — حث إميل على أن يوازن بين أعمال يومه وأمسه ،  
متوقفاً أن يكون عمل اليوم أصح من عمل الأمس ، لأنه اليوم أكبر  
سناً ، وأغزر عقلاً ، وأشدُّ مرونة وقدرة على تنفيذ الأمور ، افرض  
أن الطفل رسم صورة ثم ألزمه المعلم بالاحتفاظ بها ، ووضعها على  
الجدار ، راقباً عليها تاريخ البدء والتمام ، فإنه يرى من مجموع أمثال  
هذه الصورة عقداً مرتباً على حسب ترتيب أزممنتها ، وبالحرى مرتباً  
بحسب الجودة التي يجود بها تقادم الزمن والتمرين والتهديب . ولا  
يكاد يطلع عليها صانعها حتى يراها متدرجة في سلم الرقي ، متقدمة  
في طريق البراعة ، بعيدة عن مخازي الحقد ، وقد سبقه إلى هذا  
المعنى رجلان : هما أعشى همدان والمعرى قال الأول :

رأيتك أمس خيرَ بني لوئى      وأنت اليوم خير منك أمس  
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً      كذلك تزيد سادة عبد شمس

وقال الثاني : —

ينافس يومى فى أمسى تشرفاً      وتحسد أسجارى على الأصائل

٤ ) ورأى « كانت » أن أحسن ما تكون المنافسة إذا توجهت رأي كانت فيها  
عزيمة المتنافسين إلى الغاية دون الوسائل ، فالحمد المسترذل إنما يعترض  
المنافس وهو سارٍ في طريقه إلى الغاية ، فإذا قطع الطريق إليها بعيداً  
عن الضغينة ، ناظرًا إلى نور الحقائق الرضاء ، فقد حمد السرى .  
وكأني بعقلاء المؤآفين وأهل الابتداع يمدون أيديهم لمصاحفة  
من ينقدون أعمالهم ويميزون غنمها من سمينها . ونحن إذا سؤغنا  
للناقد تقرير الحق حبا في الحق ، فلا نسوغ له التشهير بالزاة والطعن  
في قائمها ، فإنه لا يدري كم عانى من المتاعب في التأليف والابتداع .  
والعمل الإنساني — مهما بلغ من التدقيق — عرضة للخطأ . « إن  
الأبرار لثني نعيم على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم  
نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ، وفي ذلك  
فليتنافس المتنافسون »

## فوائد المباراة

الأمر يكيون لم يهتموا بفوائد المباراة للقاعدة الأصولية : « دره  
المضارّ مقدّم على جلب المنافع » ، وإلا فأى باب من أبواب الحياة  
يستغنى عن المباراة ؟ نعم إن المباراة فتحت لأهل النقيصة أبواب  
الخرى ، فاستباح الطالب النفس في الامتحان ، ورأى في تحصيل  
العلم ، وحشا عقله بعلوم لا حظ له منها إلا استدراك الفوز على

الأقران ، حتى إذا انتهى الامتحان طوى صحف العلم ، وتناسى  
قضاياها ، وفعل ما ينهى العلم عنه .

وكثيراً ما تهافت المجرمون على النقيصة وولج الأغنياء غمار  
الإسراف إجابة لمطامعهم السافلة ، فالمباراة التي من هذا القبيل  
معمّومة بلا نزاع . ومن ينكر أن المباراة حلت في جميع عصور التاريخ  
محلاً فخماً ، وقطعت بالمدنيّة مراحل بعيدة المدى ؛ نرى الأدب العربيّ  
مثلاً نهض نهوضاً بديعاً في عصر الدولة العباسيّة ، ونبحث عن السبب  
فنجد الأدباء تنافسوا في رفع مناره ، وفي الخطوة عند الخلفاء الذين  
كانوا يجأون منزلة الأدب . ونجد الآن فنّ الطيران سار أشواطاً  
سريعة تجاوزها أدوار الذشوء ، والمباراة عامل كبير لهذا الرقيّ .  
كذلك دخلت المباراة مبيعاتنا ومشترياتنا ، وفي التآليف ومواضع  
الابتداع ، وفي الغلبة والسيادة ؛ فهي روح فيأضنه تثير الهمم ، أصبحت  
بها الأمم أكثر نشاطاً . وأشدّ إقداماً ، وأجود عملاً . ولم نعدّم المعارض  
ودور التحف نصيبها من المباراة بين الأمم ، ورأينا في رحابها  
— أينما وجدت — فروع العلم وضروب الصناعة كأغصان الكرم  
مدلّاة لمن يقطف ثمارها ، معروضة للناظرين من درجة السذاجة إلى  
قمة الحسن والإبداع ، كأنها تنادى الإنسان أن يجول ببصره في آثار  
السلف على ترتيب وجودها في سأم الارتقاء ، لعائه يحذنها ويختطّ  
لنفسه مكاناً يناسب زمنه وعقله وبيئته ، لتجري السيرة الطبيعيّة مجراها  
في الإتقان .

والمجلات والمحافل كذلك ميادين للمباراة يطالع فيها القارئ على ثمرات العقول ، ويتعرف سريان نور الحق . وكم رأينا أناساً استحك فيهم داء الأثرة يخافوا أن يسبقهم غيرهم إذا باراهم ، فكتموا العلم في صدورهم ورضنوا به عن الإنفاق ، فهؤلاء ، إذا انقضت آجالهم ماتوا ودفنت معهم تجاربهم ، وحرّموا العالم ثمرتها ، وأهمل ذكرهم من تاريخ نهضة العلوم .

وكم أناس تباروا في الإصلاح ، واستشاروا الرأي العام على لسان الصحف في حكمة عثروا عليها ، أو صنعة ابتدعوها ، أو إثارة من علم دونوها ودعموها بالتجارب الصحيحة ، فذكرها التاريخ مقرونة بالفخر ، وردّد الخلف صداها مقرونة بالإعجاب ، ثم جاءت على أثرهم أمم جمات خاتمة مطاف سلفها مبدأ لأعمالها ، واندفعت في ميدان المباراة بجد وإخلاص ، فهؤلاء خليقون بالسيادة وتسخير الأمم لإرادتهم . مؤكّدون عرا الرابطة التي أذن الله أن توثق في سبيل التعارف « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » .

## المباراة في المدرسة

المباراة من الغرائز التي تستدعي رعاية وضبطا ، وهي كالأرض الخصبة تجود بالخيرات إذا خُدِمت ، وتنبت الحسك إذا أهملت .

وجدير بالمسابقين أن يكونوا من سنّ متناسبة ، وأن تكون رقابة  
المعلمين عليهم متينة ، ليحولوا بينهم وبين الجوح وسوء المعاملة اللذين  
يحدثان عادة بين المتسابقين . وعليهم أن يجعلوا نُصب أعينهم غاية  
الجوائز المدرسية محبوبة كالجوائز يستحثون همّتهم على إدراكها ، ومتى تذوّقوا طعم العلم  
لم يكن هناك حاجة إليها ، بل يكون حبّ العلم والتوسّع فيه رائدًا  
للإكباب عليه .

وللمعاهد عند الأمم الرافية عناية بشأن المكافآت ، يوزّعونها  
في حفلات مشهودة يؤمّها الآباء ومن يهتّمهم أمر النشء ، وفيها ينتهز  
المعلمون الفرص فيحادثون الآباء في ميول أبنائهم التي يشاهدونها  
فيهم ، ويبحثون معهم في تقويمها واختيار ما يناسبها من العلوم والفنون ،  
ويذكرون لهم عجائب الفطرة في تباين القوى . وأحسن من الجائزة  
المادّية كلمة الشكر يسمعها التلميذ من المعلم في حضرة إخوانه . رأيت  
معلمًا أصلح أمالي تلاميذه وقدر درجاتها وأعاد الدفاتر إليهم ، ثمّ سألتهم:  
من نال درجة الفوقان ؟ فوقف تلميذان وملاحح السرور بادية على  
وجوههما فأثنى عليهما ، ولم يذكر أسماء الضعفاء اللذين أهملوا جانبي  
الصواب والإتقان ، واكتفى بتوعدهم إذا عادوا إلى مثل هذا التقصير ،  
اعتاد معلم في أثناء الدرس الأخير من الأسبوع أن يقف تلاميذه  
حوله ذات اليمين وذات الشمال ، وأمر أحد الجانبين أن يطرح على  
الجانب الآخر أسئلة من درس الأسبوع يختارها كما يشاء . ومتى كبا  
جواد المسئول من الجانب الأيمن ، وقدر السائل - وكان من الجانب

الأيسر - على الإجابة عنها ، كان له أن يحتل مكانه ، وكلما انتهى بهم التنافس إلى ترتيب حفظوه إلى الأسبوع الذي يليه .

شاهدتهم بين يدي هذا التنافس يختارون الأسئلة الغامضة ، ويموّدون أسنتهم التعبير عنها وعن أجوبتها ، ويناضلون لإظهار الحق ، ويسارعون إلى إحراز الشئ ، ويجاهدون في تقويم معوج نفوسهم ، نازعين عنها طلاء الغرور والخيلاء كأنهم يقولون : —  
وحيثما كلنا يرمى إلى غرض فخبذا ناضل منا ومنضول

### (٨) غريرة الفخر

المحاكاة تتحول إلى مباراة والمباراة تتحول إلى نخر وخيلاء ، وكلاهما ظاهر الأثر في عالم الحيوان والإنسان . فالحصان وهو بمرأى ومسمع حصان آخر ينفخ أنفه ، ويحنى رقبتة ، ويرفع ذيله ، ويمشى مشية الإعجاب والصلف ، ويصهل مشيراً إلى ما كمن في صدره من حبّ الفخر .

والطاوس يدلّ في مشيته ، وينشر ريشه ذا اللون الزاهى مباحياً به . فتجده كالعروس يختال من فرط ما منحته الفطرة من الجمال ، ويُسمع الناس صوته لعلمهم يلتفتون إليه .

يبدو الفخر من الأطفال وهم على وشك المشى ، وعند ما يستطيعون الإعراب عما يدور بخلدكم ، وحيثما يشاهدون ارتياح الناس إلى أفعالهم . سرّح نظرك في ميولهم إذا لبسوا قشيب الثياب

في حفلات الأفراح والأعياد ، تجدم يتيهون إذا رمتهم العيون في  
غدواتهم ورؤعاتهم ، وجلُّ أمانيتهم أن يُسألوا عن نوعها وثمنها وحسن  
هندامها ، ويسرهم الإطناب في ذكر أوصافها ولا يأنفون من المبالغة .  
ومتى عادوا إلى منازلهم ولم يجدوا للفخر مجالاً طَوَّوْها ، واكتفوا من  
اللبس بما يسدُّ الحاجة .

وكما تجد الطفل مطبوعاً على حبِّ الفخر ، تجد قلوب الرجال ولا  
سيِّما أولى المواهب السامية في الخطابة والشعر والمناظرة قد أُشربت  
محبَّته ، وكلمة المديح تبعث في نفوسهم همّة وإقداماً وإتقاناً . وقد سمع  
المصطفى أناساً يُطرون شخصاً فقال « لقد قصمتم ظهر الرجل » لأنه  
إذ يسمع المديح لا يتمالك نفسه أن يستزيد من أسبابه ، وربما طاش  
سهم إرادته فأورده موارد الهلاك .

عرف الصحفيون الغربيون طبيعة الأوانس وما يهويته من أفانين  
التجمل والفخر ، فلم يَصِفُوا محفلاً إلا جعلوا همَّتهم تفصيل ما أبدعن  
من اللبس ، وما أفرطن من التنسيق . وأهل الترف والبذخ يقيمون  
المآدب ويصفون عليها أطيب المطاعم والمشارب ، ويتأثقون في اللبس  
والأكل والركوب والسكنى ليجعلوا من ذكرهم أحاديث للناس ، ولا  
يبالون أنفقوا فيها جميع ثروتهم ، أم طوَّحت بهم طوائف الديون .  
قال الله تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ  
عُلُوقًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَمِّينِ » وفي هذا القول

إشارة إلى مشوبة من يتجرّد من إرادة العلوّ والفساد معاً ، أمّا العلوّ وحده الجاري على سُنَنه المشروعة فلم يَغْمَطه أحد مقامه بين درجات الكمال . ولدى نزول الوحي بهذه الآية قال عليّ بن أبي طالب : « أمّا الفساد فلا نبى ، وأمّا العلوّ ففي النفس منه شيء » .

ولولا الفخر ما خاض القوّاد سبل المنايا برِباطة جأش ، ولا دأب أساطين العلم وفُرسانُ البلاغة في البحث والتنقيب ، وهو بنية النفوس ، تهجر من أجله اللذائذ ، وتضحّى بكل عزيز في سبيله .

وداءً ما تطمح النفس إلى الموازنة بين ما أُوتيت من فضل وما ناله الخاطيء والمعاشرون ، حتى إذا شفت الموازنة عن شرف حسبها ، وعلوّ مكانها من العزيمة والإرادة ، وغزارة ثروتها من المال والولد ، تجد شعور الشم يتولاها ، فلا تحيد عن الفخر قيد أنملة . والنفس الكاملة لا تندفع حينئذ في تيار الزهو والغرور ، بل تستزيد من محاكاة نماذج الفضائل التي زخرت بها تراجم العظماء ، وربما لعبت بها فواعل الغرور فسارت بها في أودية الصلف والكبرياء ، فتتحلّ رابطة الوثام بينها وبين الناس ، وتبوء بالخسران .

والفخر بالمحتد محدود عند الأمم عامّة من أسمى الأقدار ، وكان للعرب حظ وافر منه ، ذلك لأنّ الأصل الشريف ينتقل إلى الذريّة بالوراثة كما أسهبت الكلام عنه في باب الوراثة ، أو لأنّ الانتساب في ذاته يهتّى الخلف لاقتفاء أثر الساف الصالح احتفاظاً بسلسلة النسب الشريف . وما أغني من يفتخر بنسبه المتصل بالأتقياء وهو بشرد عن

الصالح . فعمله حينئذ مناقض لشرف الانتماء ! قال البحترى مشيراً إلى هذا :

ولست أعتدُّ للفتى شرقاً حتى يرى في فِعاله حَسَبَهُ

وقد قال المصطفى لنفر من قريش في معرض الفخر بنسبه :

« أنا خيركم بيتاً وخيركم والداً » ، وقال في معرض الفخر بأدبه :  
« أدبى ربى فأحسن تأديبي »

ما ورد في الفخر

كذلك افتخر أبو بكر الصديق فقال في خطبته يوم السقيفة :

« نحن المهاجرين أولُّ الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأمشهم رجماً برسول الله » . وكان الحسن ابن عليّ يفخر بأنه يمتُّ إلى المصطفى بالقرابة ، وإلى العمل الصالح بالهمة والإقدام . صعد المنبر يوماً وكان معاوية — أمير المؤمنين — حاضرًا فأفاض الحديث فخراً بنسبه . فامتعض منه معاوية وبكته بقوله : « يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة » فانتقل الحسن إلى التعريض بمعاوية بدون مبالاة ، لعله أن جلال نسبه بالمصطفى يعضده ويصدُّ عنه كيد المعتدين .

وكان كعب بن زهير مولعاً بالفخر بجودة شعره ، حتى كان إذا

أنشد شعراً قال لنفسه : « أحسنت وجاوزت حدَّ الإحسان » .

وافتخر سيف الدولة بأنه أغزى الملوك ، فقد جمع نفض الغبار

الذي يتلبّد عليه في غزواته ، وصنع منه لبنةً ، وأوصى أن يوضع خده

عليها في لحده ، فأنفذوا وصيته . وغلا الأخوص في الفخر بنفسه فقال :

وإذا سألت عن الكرام وجدتني كالشمس لا تخفى بكل مكان  
ولا تكاد تجد إنساناً أنكر صولة الفخر وماله من المكانة الشماء  
في النفوس ، وكتب الأدب مكتظة به وتدعو إليه إذا كان حقاً غير  
متحل « وأما بنعمة ربك فحدث »

تجد الروح السامية لا تكتفى بقيادة الجسم وتسلم زمامه وحده  
بل توذ لو أنها احتلت الأجسام الأخر ، وصرفتها على حسب ميولها ،  
وحلت فيها محل التبجيل . ولا يكون ذلك إلا إذا اندمجت مصاحبتها  
في مصاحبة النفوس ، وتجردت من الأغراض الشخصية البحتة . كان  
مجرى مسافرا ، وبينما كان يطل من نافذة عربة القطار بصُر بشخص  
مشرف على الفرق ، فمدَّ يده إلى حبل الخطر فشدّه فوق القطار ، ثم  
نزل وذهب مسرعاً إلى الفريق فانتشله وعاد به إلى الشاطئ حياً ، ثم  
عاد فركب . هنالك أكبر الركاب ، وصاحفه بيد السرور والإعجاب .  
فإلى صاحب هذه النفس الكبيرة تنطلق الألسنة بالشكر ، وإلى  
أمثاله الذين ظفروا من العلم بغاية نبيلة ، ومن الصناعة بثمرة جليلة .  
وتزین صدور التاريخ بمثل هذا المجد الأثيل ، والباع الطويل . وما  
ظنك بعمل صالح يعمله الإنسان يبغي به كشف جهالة ، أو إنهاضاً من  
عثرة ، أو إيقاظاً من غفلة ؟

نم قد يكون مصدر الفخر جمال البدن وصحته ، وقد يكون  
بالرياسة وبالكياسة وبالبطش وبالمال والأولاد ، ولو نظر الإنسان  
إلى عواقب ذلك لعلم أنها عرض زائل ، فمسير الجسم إلى الزوال ،

ومصير الصِّحة إلى الانحلال ، والقوَّة إلى الضعف ، والمال كالمسافر  
يحلُّ ويرحل . وما أشقى من يفتخر بشئ ، يرقب القضاء عليه في غده ،  
ومن تذكَّر صروف الدهر وراقب تقلبات الأمور لا يطعن له قلب ،  
فأهى إلا كلمة القضاء حتى يتغيَّر سعد الإنسان إلى نحس ، وينتقل  
نعيه إلى بؤس ، وإذا قصدت إلى الفخر سبيلاً فدونك العقل الكامل  
فهو الدِّعامة التي تُشيد عليها جلائل الأعمال .

لو أطلق الإنسان نفسه على سجيَّتها ما أشفقت على البائس ،  
ولا رحمت لوعة الفقير ، بل تبدل بالإشفاق عليه جموداً ، وبالمطف  
إعراضاً وصدوداً ، وبالميل جفاءً ، وبالحنو غلظة واعتداء . ومن عجب  
أنك ترى هذا الشخص عينه إذا حشر بين إخوانه يتورط إشاراً  
للفخر فيخرج عن طبيعه ، ويجود بما يزيد على وسعه ، فيكون حبَّ  
الفخر للخيرات وازعاً ، وعن الرذائل رادعاً .

وأما كان الفخر محبوباً سارع إليه المفتونون بحق وبغير حق ،  
واختلفوا الحوادث ليموتوا أنهم موسومون بالسخاء والشجاعة ، واستحثوا  
الشعراء ليُشيدوا بذكورهم ، ويمثلوا القضاء بحامدهم ، ولكن الأوهام  
كالضباب تبدد إذا سطعت عليها شمس الحقيقة ، ويكون حالهم  
كالمهتلين على المسارح ينصبون أنفسهم ملوكاً وأمراء يتحكمون في رقاب  
العالم ، ومتى انتهى التمثيل رجعوا سوقة كما كانوا . ومن أمثلة ذلك أن  
ابن نبأة مدح نخر الملك وزير بني بويه بقوله : —

لكلّ فتى قرين حين يسمو ونخر الملك ليس له قرين

أنخ بجانبه وانزل عليه على حكم الوفا وأنا الضمين  
جاء إلى نخر الملك رجل يستجديه فلم يعطه شيئاً ، فمضى إلى  
القاضي وادعى على ابن نبانة الشاعر أنه ضمين غارم ، فاستمهله حتى  
وصل إلى نخر الملك وأخبره القصّة ، فسأل الرجل كما أمّلت قال :  
مائة دينار ، فأعطاه إياها ، ثمّ قال لابن نبانة : إذا مدحتني فلا تمد  
تضمن عني شيئاً .

وأن المتنبي سار في البيداء فاعتدى عليه «فاتك» ولما لاذ بالفرار  
ذكره بقوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم  
فاغترّ بشعره الذي اعتقد صحته ، وكان من أمره أن تصدّي اقتال  
خصمه ، فحاق به نخره الكاذب ، وأوقفه في شرك الموت .

## الفخر والتلميد

يحقّ للتلميد أن يفتخر بالفوقان على أقرانه لأنّه ثمره جدّه ، يحقّ  
له أن يفتخر بما أدخر من المال بدون تقدير ولا سفهٍ طاقداً عزيمته على  
صرفه في وجوه البرّ ، وإلاّ يدّ نخره خزيًا وعارا ، يحقّ له الفخر بالإنفاق  
على العجزة والبائسين تخفيفاً لآلئهم وحثاً لمواطن الجامدين ، فإنّ  
أكثر البخلاء ينفقون المال لا حباً في الإنفاق بل مجارة للمحسنين  
ودفعاً لمرّة البخل ، وتسكيناً لثائرة الهجّائين ، يحقّ له الفخر بإهداء  
الكتب للمعاهد ، وبالسعي لرفع منار العلم ، وبإطعام اليتامى ، ومعالجة

المرضى ، يحقُّ له أن يفتخر كما افتخر رسول الله بقوله : « أُعْطِيتْ جوامع الكلم » فإن في هذا تحدُّثًا بنعم الله  
إننا ننكر عليه أن يفرغ حديثه في قالب الفخفة فيؤلم عواطف  
معاشره ، وبذلك ينحرفون عنه فيخسروهم عند مسيس الحاجة ،  
ويخسرون به فرداً عاملاً من المجموع العام . ننكر عليه أن يجبذ نفسه  
بأنه نال جائزة أو شهادة ، أو يضمهما في منزله على مرأى من زائريه ،  
فإن شهادة الأعمال المبرورة خير وأبقى .

أيها المفتخر اجعل من عمالك لساناً ناطقاً صادقاً ، ولسانُ الحال  
أبلغ من لسان المقال ؛ افتخر بالجدِّ والسهل للمصلحة ونصرة الضعفاء ،  
وخدمة الوطن وبذل الوسع في ترقية شئونه وإرشاد أهل الضلال .  
واتبع نصيحة ابن المقفع حيث يقول : « إن استطعت أن تضع  
نفسك دون غايتك برتبة في كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل ،  
فإن رفع الناس إيتاك فوق المنزلة التي تحطُّ إليها نفسك ، وتقريبهم  
إيتاك إلى الجاس الذي تباعدت منه ، وتعظيمهم من أمرك مالم تعظم ،  
وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك مالم تزيين هو الجمال » .

## ( ٩ ) غريرة الملك والاقتناء

ما أبعد الحيوان عن مطاعم الملك والاقتناء ، يستغنى عن اللباس  
يستر به جسمه . ويكتفى بالنزر اليسير من الطعام الذي يجده بلا عناء ،  
ويرضى من السكنى بالمأوى الحفير يكمن فيه سواد الليل ، ويحفظ



المرعى الذى يكفيه ومن يعوله قانعاً من القوت بالكفاف ، فلذلك عاش  
هنىء البال قرير العين . ثم تسربت المطامع إلى قاب الإنسان له ما زاد  
نسله و برقت أمامه بوارق الحضارة ، فأصبح لا يقتصر من المسكن  
وغيره على ما يكفيه طول حياته ، بل أغار على جيرانه ، وتوسل بالطرق  
المشروعة وغير المشروعة إلى السرقة والاعتصاب ، ولو فكر لعلم أن  
الأرض تستهويه بجهلها ليلكما ، وتحتة غريزة الملك ليعتمرها ، ثم  
تبادلها الأيدي بالميراث والبيع جيلاً بعد جيل ، حتى إنك لو أحصيت  
من ملكوا على التوالى قطعة صغيرة من الأرض لأعيك العد ،  
وتلكتكتك الدهشة من أن الأرض لا تزال كما كانت ، وأن ملاكها هم  
في الحقيقة خدام سخرتهم هذه الغريزة لإصلاحها ، وهذه من سنن  
الكون البديمة .

وعلى حطام الدنيا يتنازع الأصدقاء أحياناً ، ويرغب كل منهم فى  
أن يملكه وحده ، ولا يرضيهم أن يقسموه بينهم . فشت هذه الحال  
بين صفار السن وكبارها على السواء « يشيب ابن آدم ويشب معه  
خصلتان : الحرص وطول الأمل » . نعم إن الإنسان — مهما بلغت  
درجته من العلم — لا يكاد يرى شيئاً طريفاً حتى تجيش نفسه بحب  
ملكه ، مع أنه قد يكون فى حل من النظر إليه أو التمتع باستنجاره .  
فما سر هذا ؟ إن فى الملك معنى نفسياً تصبو إليه النفس ، هو حرية  
التصرف فيه بالتغيير الذى يتفق هو وذوق المالك ، والمستأجر  
مسلوب الحرية ، لا يعمد إلى الحدود التى يرسمها له المالك ليضمن سلامة

المين المستأجرة ، ومع ذلك فهو مهدد بفسخ عقد الإجارة وبغير ذلك من ضروب المهانة .

## فوائد الملك

إن اختيار مكان البيت مثلاً وحرية التصرف فيه بتنسيق البناء وترتيب الأثاث وغرس الأشجار مظهر من مظاهر ذوق المالك . ملك الطفل كتاباً تجده أحياناً يزقه منقاداً إلى ذلك بفريزة سيأتي شرحها ، وأحياناً يُغلفه وينمق عليه اسمه ، ويوسع له ركناً في خزائنه يندو ويروح إليها ، ويقرأ به عيناً ولو لم يقرأ فيه ، ويقيد به من الشوارد ما شاءت ميوله . وإذا أتيح له أب يحترم فيه هذه الفريزة كان من مقتضيات هذا الاحترام أن يحتفظ بالكتب التي ملأها إياها صغيراً ، ويسأله إياها كبيراً ، ليمسّر له أن يراجع ما درسه فيها ، وأن يتذكر مقدار جولان ذهنه في مضامينها في عهد الطفولة ، والطرق التي اتبها المعلم معه فتنفعه الذكرى .

إذا عرفت فائدة الملك أمكنك الحكم على قصار النظر الذين يَحْشَوْنَ نزول الفاقة بأبنائهم وحفدتهم فيجبسون عليهم أملاكهم ، ويغلّون أيديهم عن التصرف فيها ، ولا يكاد ينقضى الجيل حتى يزداد النسل ويقلّ الرّيع ، فتتصرف عنايتهم عن إصلاحه لحاجتهم إلى النفقة ، وانفكالكِ رابطة الإخاء فيما بينهم ، فيثول هذا الملك إلى خرائب ، ويصبح مصدر تنازع مستمرّ . وسبباً لفقر لا طاقة لهم

بتحمّله . لو أنصف الآباء تركوا لورثتهم هذا الملك يفتسمونه بينهم . اقتساماً شرعياً ليتصرفوا بمواهبهم فيه . فإنهم إذا صاحوا استفادوا منه وعمّروه ، وإذا فسدوا خرج من أيديهم وانتقل إلى من يصاحه ، وهذه نتيجة طبيعية للإهمال الذي هو سبيل العظة ، قال علي بن أبي طالب « ما ذهب من مالك ما وعظك » .

يُحَسِّنُ المعلمون والآباء صنماً إذا تضافروا على تقويم هذه الغريزة ، فحفظ الآباء إعطاء أبنائهم مصروفهم اليومي ، وحفظ المعلمين موالاة الحث على ادخاره ، ومناقشتهم في وجوه الصرف في المقتنيات ، ملاحظين أن الأخيرة تحتاج إلى أضعاف ما تحتاج إليه الأولى من الحكمة والسداد ومعرفة قيم الأشياء ، وهي تتنوع تبعاً لما ركز في نفس المقدّر . إليك قطعة الخزف القديمة ، يشتريها بوزنها ذهباً من يعلم أنها تسدُّ الثُّلثة بين التحف العادية ، وترشد إلى تاريخ الصناعة في عصرها ، والخطوط الأثرية تُشترى بثمن غالٍ لأنها تسدُّ فراغاً يلائمها ، وعشاق التاريخ يجمعون مُحَنَظ الحشرات وما اقضى عهده من الثياب والآنية ومعدّات الحرب . ويباهى الأغنياء باقتناء الصور التي رسمها رافاييل<sup>(١)</sup> ويشترونها بألاف الجنيهات ، لأنّ التاريخ حفظ للراسم البارع هذه المهارة ودقّة الصنعة ، فهافت عليها وعلى أمثالها

قيم الأشياء  
الذاتية والنسبية

(١) رافاييل Raphael ايطالي نبغ في الرسم والتلوين في القرن السادس

عشر الميلادي دعاه البابا يوليوس الثاني إلى روما لينقش حجرات قصره الفخم

( الفاتيكان ) فأبدى براعة فائقة

عشاق الفن ، وكلما قَدُمَ المتروك من ذلك كان أعلى قيمة ، وكان القوم عليه أشدَّ حرصاً ، وتنافسوا في ملكه وفي تقدير ثمنه . وللعلماء شغف باقتناء الأسفار لا سيما ذات الخطَّ اليدوي ، يجمعونها للاستفادة من محتوياتها ومن الذوق الفني السائد في عصره . ولهم كذلك شغف بالأسفار إلى الممالك النائية يقرءون فيها ماسطرته يد الطبيعة ، ويقتبسون منها ما جادت به أنوار الحقيقة ، فيقفون على العادات وما تدرجوا إليه في سبل الحضارة .

يُخرج الأطفال للتنزه ويسرُّهم إجابة مطالب هذه الغريزة بجمع ما تمتدُّ إليه أيديهم من الصدف والأحجار ، وإذا عادوا إلى منازلهم طرحوه في ناحية منه وقاموا أعاروه التفاتاً . فلينتهز الآباء هذه الفرصة السانحة ، وليفصحوا لهذه المقتنيات مكاناً خاصاً لينسق فيه الأبناء ما يعثرون عليه من الطرف ، فإنَّ ترداد النظر إليها يحثُّهم على البحث عن فوائدها . أمَّا الكتب فهي كنز العلوم وخلاصة الأفكار سهر العلماء في الحصول عليها وتدوينها ، فحق لنا أن نفاخر باقتنائها ، ونزين بها حجراتنا ، ونزيد بقراءتها معلوماتنا . ولم يكن للفقراء فيما مضى مندوحة لشراؤها لغلاء ثمنها ، أمَّا الآن وقد ذاعت الطباعة وراج سوق الكتب ورُخصت أسعارها ، فحق لنا أن ننشط المؤلفين بشراء مؤلفاتهم ، وأن نجيب إلى أبنائنا شراءها مما يقتصدونه من المال ، ونعرفهم سبل الاحتفاظ بها ،

وقد كانت الكتب إلى عهد قريب تصرف للتلاميذ على سبيل

العارية ، ثم تردُّ بعد الفراغ من الدرس : حمدنا الله على نبذ هذه الخطة السقيمة ، لأنَّ فيها حرمان الطفل لذَّة الملك ، وحرمانه مراجعة الدروس في أوقات العطلة ؛ وحرمانه الاحتفاظ بالكتب التي زوَّده به المعلم ، وقيمة الاحتفاظ بها ثمينة يدركها الطفل متى كبر .

وللمقتنيات حظٌّ وافر من العناية عند كثير من الأمم المتعدية ، وأمنية الرجل منهم إذا هاجر أو ساح في بلد أن يعود إلى منزله ، ويعرض فيه كلَّ ما جمعه من المقتنيات ، ويدعو إليها زائريه ويحادثهم في تاريخ العصور عليها . فهل لنا من مربِّين يحرِّكون فينا هذا الميل ؟

لا يكاد يخلو إنسان من شيء يقتنيه ويبالغ في الحصول عليه . رأينا من يقتني المصوِّرات التي ابتدعها أنامل مهرة المصوِّرين أمثال رينولد Reynold فقد رسم وجه ابنة أمير وهي في طور الطفولة ، رسمها في خمسة أوضاع وأفاض عليها روح الملائكة ، فاجتمع من حسن تنسيقها وما أسبغ عليها من اللون مثالٌ من الجمال له روعة كروعة الشعر ، والشعر والرسم أخوان وهما وليدا الخيال ، وقد عرضت في لندن صورة من رسمه وهي من مقتنيات أحد الأغنياء فبلغت قيمتها

٥٢ ألفاً من الجنيهات

ورأينا من أولع بالنبات يبني له السقائف الزجاجية ، ويتخذ لها النوافذ والمدافئ ومقاييس الحرارة ، ويهتمُّ أن يصل منها إلى ورقة نضرة ، أو زهرة بديعة ، أو ثمرة نادرة ، يقدمها في المعارض الزراعية دليلاً على أنه أفرغ الوسع وأجاد . ورأينا من يجمع أوراق النبات

المختلفة الأشكال وأنواع الأزهار ، يضغطها ويتخذ منها مجموعات  
لدراسة التاريخ . ورأينا من يهتم باقتناء الدواجن والطيور المفرد والحيوان  
الوحشى والخيل والكلاب والقطط ، يراقبها ويدرس طبائعها ، ويجعلها  
سلوته فى زمن العطلة . ورأينا من يجمع النصب التى تمثل الإنسان فى  
أطواره المختلفة ، ويؤلفها تأليفاً يصح أن يسمى ديوان الهيئة الإنسانية .  
ولم تصل الأمم الحية إلى هذه الدرجة إلا بفضل التعليم ، فقد عنى  
المرثون بمراقبة أذواق المتعلمين وميولهم ، وأيقظوا الشعور الفريزى  
الكامن منذ الصغر حتى نما ، وصار ملكة يعول عليها فى تقدير الحسن ،  
وتمييز الجمال ، وتدقيق النظر إلى كتاب الكائنات ونظام المخلوقات  
التي تدل على بارئها بجميل صنعها . ونحن إذا دخلنا بستاناً فأيسر شئ  
نراه فيه صنوف الورد والزهر ، وندهش من حسن أوضاعها وذكاء  
ريحتها وبهاء لونها ، ونود لو أننا تبقى على حالها طويلاً لتزداد حواسنا  
بها تمتعاً ، وهذا هو السر فى أن صورها فى شكلها الصناعى أغلى منها  
فى شكلها الطبيعى ، إذ لا يستطيع المصور البارع أن يخرج لنا هذه  
الصورة طبق الأصل إلا بعد إيمان طويل فى دقائق القدرة الإلهية ،  
وعناء كبير فى سبيل المحاكاة

والحكومة كالأفراد تغلو فى اقتناء النفائس على قدر عزمها  
العلمى والمالى . نرى فى مصر دارى التحف المصرية والعربية وقد  
غصت رحابها بمتروكات الآباء التى تقادم عاينها العهد ، واست تجد  
بينها من طرائف مصر فى العصور الحديثة مايدل على فضل ونهوض .

وإذا شخصت إلى دور التحف للأمم الحيّة وجدت ذخاثرها القديمة والحديثة قد التأمّت ، ولا تكاد تجد فيها صناعة أهمل تاريخها . ففيها نماذج الآلات والأساطيل مرتبة بحسب عصورها وتدرّجها في التحسين .

هذا وإنَّ حُبَّ الحكومات الراقية للمقتنيات التاريخية ، دعاها إلى شراء القصور القديمة وما فيها من أثاث ورياش لنحتفظ بتاريخ السلف . وقد تغلوا الحكومة فتقتنى الجواهر المنقطة النظير أمثال (قوه نور) وهي ماسة كبيرة الحجم وصلت إلى لندن في القرن الماضي وكانت في تاج أحد ملوك الهند .

### ( ١٠ - ١١ ) غريزتا الحلّ والرّبط

إنَّ الطفل لا يفهم ما يحيط به من الكائنات إلا بمعونة الآباء والمعلمين ، وهم في الواقع لا يستطيعون سبّغ غور ميوله إلا بعد زمن طويل ، فوجب عليهم أن يفوضوا إليه استجلاء الحقائق واختبار الأمور بما ركز في جيبته من غريزتي الحلّ والرّبط . يتناول الصورة مثلاً فيرتاح إلى النظرة الأولى إليها لغرابتها ، ثمَّ يُصَيِّرُها الاستعمال مبتدلة لولا ما يُدخله فيها من التغيير ، ولا نعجب إذا رأيناها يعبت بها لعله يصل إلى تغيير مناسب يؤثر فيه التأثير الرائع . يأخذ اللعبة ولا يكاد يمضي اليوم حتّى بكسرها . يمسك الساعة فتدهشه دقائقها ، ويحاول فتح غطاها ليقف على السرّ المكنون في باطنها ، وإذا أعياه ذلك

كسرها لا حُبًّا في الإِتلاف كما وَهَمِ المخطئون ، بل طموحاً إلى علم  
تجريبي يَظنُّ به أوارَ ظمئه ؛

وممَّا يدلُّ على أنَّ الطفل مولع بالتركيب أنه ينبري لصنع طيارة  
مثلاً إذا اجتمع عنده الخيزران والورق ، وينبري لصنع الكيس إذا  
توافرت لديه القصاصات ، ويقوم البيت ممَّا يقع في يده من الأشياء .  
وقد تحرَّك هذا الميل في صدرى وأنا صغير ، وانهزت فرصة فراغى  
وصنعت ممَّا كنت أجمعه من الموادِّ عجلة تدور بمحرِّك ، وكان شوقى  
إلى إتمامها وتنفيذ ما دار بخلدى من أمرها يحملانى على مقاساة التعب  
بدون شعور

الحاجة الى هاتين  
الغريزتين فى التعليم

على الحلِّ والربط عماد اللغات ، لاحتياجنا فى منشآتنا إلى  
مفردات صحيحة فصيحة نستعيرها من أساليب البلغاء ، نحأها ثم  
نصوغها صوغاً جديداً يعرب عمماً يدور بخلدنا من المعانى ، ونسُدُّ  
عليه ثوب التأثير . ويعول علماء الأعضاء على هاتين الغريزتين  
فيتنافسون فى تشريح الحيوان الحى ونجريده من أجزاء مخه ومراقبة  
حركاته لعلهم يدرسون علاقتها بالمدركات . وقد توسَّعوا فعرضوا على مَنْ  
سَمَّ الحياة أم والأطائفة لَيْسَمَحْ لهم أن يُجروا التجارب فى جسمه فى  
أثناء حياته ، فيعرفوا كيف تؤدَّى أعضاؤه الباطنية وظائفها .

وعلى الجملة لا يستطيع مبدع أن يجول على بصيرة فى ميادين  
الأعمال بدون أن يتَّخذ من هاتين الغريزتين رائداً له . ونحن إذا  
خفنا عبث الطفل بأثاث منازلنا ، وأغلقنا أمامه أبواب التجارب التى

يستفيد منها العلم الصحيح بما يحيط به أمناً اخطر طبعاً ، غير أنه ينمو  
فاتر القوى جامد الذهن ضعيف الإرادة ، ومن أجل ذلك فكّر المربي  
« فروبل » فصنع لعباً تقبل الفكّ والربط ، يتناولها الطفل ويصوغ  
منها أوضاعاً مبتدعاً . ولبعضهم نماذج مصنوعة من الخشب وُشِيَتْ  
ظاهرها بصور رائعة يفكّها الطفل ، ثمّ يهيم شوقاً بإعادتها كما كانت ،  
ودليله على ذلك بدو تلك الصور بشكلاها الأصليّ ، ويتولى بنفسه  
تركيبها ، ولاستحالة قيام بعض أجزائها مقام بعض لا بد أن يصل  
إلى وضعها الذي كانت عليه طال به الزمن أو قصر ، وعجينة الصلصال  
الشائعة الآن في المدارس أداة وضعت لهذه الغاية ، تسهّل على الطفل  
محاكاة النماذج وتقويم اعوجاج مصنوعاته بنفسه .

## (١٢) غريزة الاستطلاع

تدلّ المشاهدات على أن النمل يتخذ كشافة لجيشه لترشده إلى  
خبايا الأمور . ومما لا جدال فيه أن « نفس الطفل طامّة »<sup>(١)</sup> ،  
فالرضيع إذا قرّبت إصبعك من فمه تعاق به عسى أن يكون ثدى  
أمّه ، ويبكي ليستطلع خنواً أمّه عليه . والامّ الواقفة على سرّ هذه  
الغريزة إذا رأت طفلها ينتحب لنيل غرض معين لا تقرّب منه هذا  
الغرض ، وإنّما تحمل الطفل إليه ليقترّب هو منه ، وتكرار هذا  
يعوّد الطفل السعي إلى مرغوبه . نطرق أبواب أصحابنا فنسأل الطفل

(١) كثيرة التطلع الى الأشياء

الذي يقابلنا : هل والداك في المنزل ؟ فلا يجيب عن سؤالنا بل يُلقني  
إلينا سؤالاً مثله : متى جئت من السفر ؟ وهل اشتريت لي لعبة ؟  
وهل شاهدت ما اقدنيتة ؟ الخ . فتحت يوماً كيساً أمام ابن لي يناهز  
الرابعة من عمره فقال : هل تعطيني قرشاً ؟ ولما رآه مفعماً لم ينتظر  
الجواب ، بل وجهه سؤالاً آخر : من أين أتيت بما فيه ؟ وهكذا  
اطردت أسئلته بنظام يدلُّ على أن نفسه جواله مستطلعة .

والطفل عند ما تؤثر فيه روعة الطبيعة يَشْرَبُ إليها فيسأل  
جسائه أسئلة غامضة رغبة في كشف غموضها : لماذا تشرق الشمس ؟  
ماذا يجعل الريح هابياً ؟ كيف يستحيل الحبُّ شجراً ؟ فما أصبر  
الحكام على الإجابة عنها ! لأنَّها عماد الحقيقة في ذهنه . ومِسبارُه  
يعرفون به غور ذكائه . ونِبراس يهتدون به إلى معرفة إرادته . أمَّا  
الجهلاء فينفرون من سماعها ، وينكرون عليه عرضها ، وربما أساءوا  
إليه سترًا لجهلهم ، ويكون حرمانه الإجابة قاضياً على ما عنده من رمق  
فتتطفئ فيه جمره النبوغ وسرعان ما تخمد .

رأيت بعض الصبيان يطرقون أبواب المنازل في غفلة أصحابها ،  
ثمَّ يَهْرَبُونَ ويقفون بعيداً يستطلعون أمراً يتوقعونه من الساكنين ؛  
وترى الناس مكتظين في الطرق فتتساءل عن السبب ، وربما لا يكون  
المستول أعلم به من السائل . نعم قد يتجاهل الإنسان فيسأل الناس  
تجاهل العارف  
عن أسباب الأمور ونتائجها وهو عارف بها ، ليقف على ما عندهم من  
ذكاء وعلم كما كان يفعل سقراط .

ويبلغ الاستطلاع غايته عند قائد الجيش الذي يتأثر عدوه ،  
وعند العالم المدقق والكاتب والحاسب ، وعند القاضي لتحرّى جانب  
الصدق متى تجهمت الأمور وتلاطمت أمواج المنازعات ، وعند  
السياسى الذى يمارس الطبائع ، وقيس حاضر الأمة ومستقبلها  
بماضيها ، وعند المعلم الذى يتفقد الميول ويساير الملكات الذهنية ؛  
ولكل شخص ميزة فطرية لو استطلعها المعلم وسار بها فى طريق  
الكمال لمهدت لصاحبها سبيل النبوغ ؛ ومن غفل عنها لحقه الفشل  
لإمالة ، فقد اتفق لى زيارة معلم فى درس إملاء وقد نهى تلامذه  
عن السؤال فى أثناء الكتابة ، وخاتته فطاته فلم يفسر أو لا غامض  
الألفاظ والأساليب على حسب النظام الطبيعى ؛ وبينما هو على قاطعه  
أحد التلاميذ فسأله عن معنى كلمة ، فاستشاط المعلم غيظاً من مخالفته  
الأمر وعاقبه ، فافلاً عن مطالب غريزة الاستطلاع ، ولو كان عاقلاً  
لنتبه من غفلته ، وأدرك أنه كان مخطئاً ، وعاد على نفسه باللائمة ،  
والتمس للطفل عذراً فى عدم قبول النصيح ، وعدم اكترائه للوعيد .  
بحكم هذه الغريزة يتسرع الطلاب ، فيسألون المعلم عن أمر لم  
يتمّ تحصيله ، وينقدونه قبل استيعابه ، وقبل معرفة أسبابه ، لأن  
حب الاستطلاع كالبخار يجيش به صدر المشتاق إلى تعرف الحقائق ؛  
ولذلك تراه وهو فى مضمار البحث والتنقيب لاهياً عن نفسه ، متحملاً  
آلام المشقة . لملك سمعت وصف الموكب الملكى الذى أُعدّ لتشيع  
جنازة الطيب الذكر إدوارد السابع ملك الإنجليز وما أحاط بها من

مظاهر الأبهة والجلال ، تسير فيها الجند من أقطاب المعمورة وبينهم  
الملك حَمَلَةُ النيجان ، والأمراء والأعيان ؛ ذهب بعض أصحابي إلى  
لندن مبكرين إلى حيث تسنى لهم رؤيتها ، ووقفوا على أقدامهم زهاء  
إحدى عشرة ساعة ، والناس من حولهم يمججون حتى انسدت بهم  
المنافذ على اتساعها ، وشق عليهم أن يتجرّكوا أو يستريحوا أو يأكلوا  
أو يتنفسوا ؛ صبروا على ألوان العذاب لنكتحل أبصارهم برؤية هذا  
الملك البديع ، وليستطلعوا جهد الحكومة في ترتيبه وتنسيقه ،  
فصارت نار نفوسهم المضطربة برداً وسلاماً .

قال معلم لتلاميذه وهو يستطلع جولان أفكارهم : رأيت طفلاً  
مجموماً اختلط بإخوانه فأعدام ، اذكروا لي أمثلة تشبه ذلك . فأجاب  
أحدهم بأن عينه رَمِدَتْ فأصاب الرمد عينه الأخرى ، وأن طفلاً  
حَصِبَ فأعدى الأطفال المختلطين به ، وهكذا عرضوا من الأمثلة  
ما يفيد أن عدوى المرض تنتقل من عضو إلى آخر ، ومن جسم إلى  
آخر ، كما تنتقل الحرارة في أجزاء قضيب أحمي طرفه ؛ وفهموا أن  
الذرات السابحة في الجو تخرج من المريض فتصيب السليم ، وأن  
الذباب تهافت على المرضى وعلى الأقدار فيحمل بأرجله جراثيم المرض  
ويلقح بها الأصحاء ؛ وخليق بمن يريد الاحتفاظ بصحته ألا يسكن  
الأحياء القذرة .

تقويم الاسططلاع

وللاستطلاع شروط يجب مراعاتها لجني ثمراته وهي :  
التمكّن من الفهم قبل السؤال والانتقاد ، اللهم إلا إذا عرضت

في أثناء البحث شكوكٌ تمكّر صفاً الحقيقة. فإذا كان هذا فأناصح للمعلم ألا يجيب السائل أو الناقد نصّاً ، بل يحيله إلى سابق علمه ، ويطلبه بإجالة فكره ، أو يحثّه على مراجعة رفقائه ، أو على الاطلاع على أبواب يقرؤها من كتاب ؛ كذلك يلقى المعلم على مسمع تلاميذه حكاية تُتمّ عن خلال محوذة ، ويستطلع مبلغ حاتم لعناصرها ؛ أو يعرض مصوّراً على مرأى منهم ، ثمّ يستره عنهم ويستفسرهم مشتعلاته كما وشكلاً ولونا ؛ وكذلك يحاورهم في غرض معين وينبّههم على التوسّع فيه بمراجعة كتب يسميها ، ويستحثّ همّتهم على تمحيصه والاستدلال عليه وذكر ما فيه من ضعف وقوّة ؛ وأخيراً يلقى عليهم قضايا العلوم ، ويطلبهم بتأييدها بالبراهين ؛ أو يكلفهم حلّ المسائل وتطبيق ذلك على ما درسوه .

### ( ١٣ ) غريزة اللعب

الجدّ واللعبُ مظهران للحياة ، فإذا نهضنا إلى إدراك غرض ، وشغلنا الغاية عن الالتذاذ بالحركة وما يصادفنا في غضوننا من التمتع بالمشاهد الجميلة والمسموعات الرائجة عدّدنا هذه الحركة جدّاً ؛ وإذا تلهّسنا الحركة وجملناها لنا غرضاً ولم نتطأ إلى شيء وراءها طال بنا الزمن فيها أو قصر عدّدنا هذه الحركة لهواً ولعباً .

يخسّ الفرق بين الجدّ واللعب من يجسّ فكره منقّباً عن أمر ، مدلياً بالحجّة على صحّة قضيتّه ، أو موازناً بين أمر ونظيره ، فالذهن

حينئذ لا يرتاح إليه ارتياحه إلى اذّة السمر والتنقل في الحديث لأدنى ملاسة .

الحالة النفسية  
للعب

حقّق اسبنسر أنّ اللعب من مستلزمات الحياة تخرج به القوّة الزائدة على الحاجة كما يخرج بخار المراحل المستغنى عنه . وحقّق غيره أنّ اللعب منزع يرشد المعلم إلى معرفة اليول النفسية الكامنة ، فما أحقّه موضوعاً للدراسة ؛ رأيت الأطفال وقد خطر بفكرهم محاكاة القطار فانطلقوا يمدّون وقد أمسك كلٌّ منهم ذيل ثوب صاحبه ؛ رأيتهم وقد حاكوا الحصان والسائق ، ونفس كلٍّ منهم مولعة بالبراعة في التمثيل ؛ تجدهم أحياناً يتناوبون الأمر بين رئيس ومرءوس ، ليجرب كلٌّ منهم نظامه وهمته عند اختلاف المواقف ، وأحياناً يجمد كلٌّ منهم ويصبح أكثر التصاقاً بما اختاره أولاً ، فلا يفكر من يمثل الحصان أن يطلب الوقوف في مكان صاحبه ، ولا يفكر من يمثل السائق أن ينزل عن موقفه ، كأنّ نفس الثاني قد طمحت إلى العظمة والاستئثار ، وكأنّ نفس الأوّل قد ركزت فيها أصول المذاتة والصمّغار . فحركات هاتين النفسين يميّزها الحكيم ويتنبأ عن مستقبلهما بالسعود والنحوس .

وهل رأيت الطفلة تطوى عِطافها ، وتُخذ منه مثل العروس ، تسميها وتلبسها ما جمعت من الثياب ، وتحملها على كتفها ، وتجاسها على حجرها وتناغيها ، وتعطف عليها عطف الأمّ على رضيعها . تفعل الطفلة هذا مع أنّها ربّما لا ترى من أتها مثل هذا العطف والحنان ، ذلك لأنّها مدفوعة بدافع غريزة اللعب والعطف الأموي

## أطوار اللعب

(١) الطور الأول وهو طور الطفولة ينتهي إلى السنة السادسة، والطفل حينئذ يسدُّ باللعب مطامعه الذاتية ولو حصل منها إيلام المعاشرين، فيكثر من الثثرة والاضطراب والبكاء والنحيب والعويل والضحك والقهقهة والغناء. وإذا قيل له: «ابتعد عن فعل ما يتأذى منه غيرك»، ثار غضبه وعمل على تقيض ما يُطلب منه، وأدخله العناد في ميادين التصنع والمكر.

يجدر بالمعلمين أن يراقبوا الأطفال وهم في هذا الطور، فيُسعدوهم ويُسعدوا أنفسهم بما يقتبسون من الفوائد كما كان يفعل الأخنف بن قيس والغزالي وروسو وپستالوتزى، فإنهم كانوا يستفيدون من ممارسة تعليم الأطفال ما لا يستفيدون من الكتب.

رأيت أبنائي يختلفون إلى ساحة المنزل، ويجلسون فيها على هَضْبَة رمل ويتقاسمون العمل، فيصنعون بيتًا وينسقون التماثيل أمامه لمحاكاة المثال الذي أثار في نفوسهم. هذا وأمثاله هو شأن الأطفال يساقون بدافع الفطرة إلى إبراز ما يموج في عقولهم من الخواطر، ويودون لو يطول بهم الأمد ليزيدوا عملهم تنسيقًا وإتقانًا.

(٢) الطور الثاني وهو بين السابعة والثانية عشرة، والطفل يتعلم في هذا الطور تلك الحركات التي تقوى الدورة الدموية والمضلات كعبية الإطار والجذف والجري والمصارعة، ويتعلم من الحركات

ما ينمى ملكة التنقيب ويصقل الفراسة ويشحذ الكياسة ، كلمة الاختفاء والبحث الفاشية بين صبيان مصر وعند كثير من الشعوب ، حاكوا بها الإنسان في عهده الأول الذي اعتاد فيه الصيد ، وحى نفسه من بطش الوحش .

ومن الألعاب الفاشية في مصر لعبة المِخْرَاق ( الطرّة ) بين فريقين يتنافسان في إظهار ماخفي وَوُكِلَ إلى الفراسة أمرُ البحث عنه ، والطفل يستفيد منها ثقة الفرد بغيره في الدفاع ، واحتمال تبعه ما نزل فيه قدم الوكيل .

وأعبة المِقْلَاءِ والقُلَّةِ : وهما عودان يلبس بهما الصبيان ، فالعود الذي يُضْرَبُ به هو المِقْلَاءُ ، والخشبة الصغيرة التي تنصب هي القُلَّةُ ، ورَمِيْتُكَ بالقُلَّةِ يَسْمَى قَلْوًا ، وذلك أنك ترمي بالقُلَّةِ في الجوّ ، ثم تضربها بمقلاء في يدك ، وهي خشبة قدر ذراع فتستمرُّ القُلَّةُ ماضية . ومتى وقمت كان طرفاها ناتئين عن الأرض ، فتضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثم تعترضها بالمِقْلَاءِ فتضربها في الهواء فتستمرُّ ماضية ولعبة الأنبوبة : وهي أن يحفر الصبيان حفيرًا ويدفنون فيه شيئًا ، فن استخرجه فقد غاب .

ولعبة القفّيزي : وهي خشبة تنصب ويتقاذز الصبيان عليها .

ولعبة الأرجوحة : وهي خشبة طويلة يضمها الصبيان على مرتفع من الأرض ، ويركب بعضهم على أحد طرفيها ، ويركب الآخر على

الطرف الثاني ، فإذا كان أحد الفريقين أثقل من الآخر هم بالسقوط .

ولعبة البندق : وهو طين مدور يُرمى به .

ولعبة الدوّامة : وهي ما يلعب بها الصبيان فتدار وهي المشهورة

( بالنحلة ) .

ولعبة الخُذروف : وهي شئ ، يدوره الصبيّ بخيط في يديه فيسمع

له دويّ .

وكثيراً ما نرى الأطفال يلعبون بالكرات الصغيرة ، ويتغنّون

عند اللعب بها حاسبين عدد حركاتها ، لاهين بها عن إحساس التعب .

تجدهم وهم في بحبوحة الراحة يكثرون لتدريب الأعصاب والمضلات ،

ويوفقون بين الحركات تنفيذاً لمطالب حاستي اللمس والإبصار ،

سالكين السبل التي تجمل أعمالهم مرموقة بين السداد .

نراهم يجتمعون زرافات للعب الكرة فيصنعونها من خلق الثياب ،

ويذيقون من يُحسن الرماية فيقفونه عند الهدف ، وهو يدفعها إلى

إخوانه الواقفين على أبعاد مختلفة منه ، فإذا تلقفها أحدهم ، أوراها

فأصاب الهدف ، حق له أن يذهب إلى موقف الصدارة بلا

معارض . ومن خرق سياج هذا القانون عرض نفسه لسهام الملام .

ومن الألاعيب التي تغرس حب الشجاعة والإقدام ما يفعله

السودانيون في حفلاتهم ، كأن يتجرّد الشاب من ردايته ، وينطلق إلى

الميدان حيث يضربه الجلاد بالسوط على جسده ضرباً مبرحاً فيسبيل

منه الدم ، وهو مع ذلك لا يبدي ملاماً ولا ضجراً ، فإذا طال به الأمد

على هذه الحال زغردت له النساء ، ودقت له الطبول ، ولا ينفك  
يباهى بآثار هذا الضرب مادام حيا ، وهي في نظره وفي عرف قومه  
سمات الفروسية والشباب .

ومن الألاعيب التي تشجذ الملاحظة والخيال والفكر ما ذاع  
بيننا من الأحاجي التي تضرب في مغاز شتى ، ويندفع ذهن الناشئ  
بمحض هواه إلى البحث عن مضامينها ، ولذلك عددتها من اللعب .  
كنّا ونحن صبية إذا قديم إلى منزلنا زائر التففنا حوله ، وسألناه أن  
يختبر مداركننا في شيء منها لعلمنا نوفق إلى الجواب . فكم ردّد بيننا  
هذه العبارات « أذه أذ المنمه ، يجيب الخيل ماجمه » قاصداً حروف  
الكتابة . « أذه أذ الكف ، يقتل مئة وألف » قاصداً المشط .  
« لابسه ألف خلقه ، وقاعده في الخلقه » قاصداً الكرنب . « المعجوزه  
كاشه ، وفيها أشه » قاصداً الزبيبه وهكذا .

وكنّا عند سماعها تتنافس في تصوير الإجابة معتمدين على الخيال ،  
وكم لبثنا سواد ليلنا على هذه الحال وقلما طاف بأعيننا لذيد المنام .  
ولملاحظتها أفرد لها الأدباء أبواباً ، قال البها زهير في القفل :

وأسودّ عارٍ تحل البرد جسمه      وما زال من أوصافه الحرص والمنع  
وأعجب شيء كونه الدهر حارساً      وليس له عين وليس له سمع

(٣) الطور الأخير وهو طويل الأمد ، غير أن الألاعيب  
المتداولة فيه اجتماعية الصبغة غالباً ، وقد يقصد منها تنشيط الجسم  
بعد الفتور الناجم من الأشغال الفكرية ؛ ولهذا الألاعيب فوائد

عدة أخصبها ما تعقده بين اللاعبين من روابط الود ، وما تنتهي إليه من نسيان الفرد مصلحته الذاتية ، وربما أفناها في خدمة المجتمع ؛ لذلك عنيت بها الأمم الراقية ، وفسحت لها المجال بين ساعات الدراسة ، وفي أوقات الفراغ من الأعمال ، فأسست الأندية للخطابة والألعاب البدنية والمبارزة والجذف وركوب الخيل وتسمم الجبال والتمثيل وقطع المراحل مشياً على الأقدام ولعب الشطرنج الخ .

### اللعب والتعليم

علمت أن قضايا العلوم إنما تثبت في الذهن إذا كانت غضة شبيهة ، وتزيدها الطرق جفاءً إذا كانت جدية ، لذلك لا تعجب إذا رأينا الطفل يذهب إلى المدرسة فاتر القوّة ، خائر العزيمة ، خائب الأمل ، متمتراً في ذبول المال ؛ وكيف لا ينقبض صدره ولا تبكي عيناه ، وقد غادر مكانه في منزله وبين يديه أبويه حيث كان حراً في تصرّفاته . ولقد استذكر الحكيم فروبل أطواره الأولى وما طانى من الآلام ، فقال : إن نفسه وهو طفل تعلّمت ببناء كنيسة راقه شكلها ، فجمع الخشب والطوب والحجر وانبرى للعمل ، ولما أعياه الأمر ولم يجد مرشداً ذلك البناء وتحول عنه ولبث طوال عمره يندب ما قاساه من انصراف المعلمين عنه ، واشتغالهم بأمورهم عن مراقبة هذه الميول ، وبما كانوا يعمدون على الفطرة في سيرها ، ويشددون النكير عليه إذا خالف أوامرهم الجافة .

كانوا كذلك في عصر فروبل ولا يزال كثير منهم في عصرنا  
يأفون من تعليم الصبيان ، ويضيقون ذرعاً بحسن معاشرتهم ،  
ويتلمسون البعد عنهم كلما سنحت الفرصة ، ومتى أسئوا يعدون تعليم  
الصبيان نزولاً عن المستوى اللائق بهم ، ولو فطنوا لأدركوا أن  
ممارسة الأطفال تحتاج إلى رعاية الخبير وصبر الحكيم وعلاج الطبيب  
وامتداد نظرات الفيلسوف الذي يمارس التعليم مستعيناً بالفرائز ، فيشير  
أحياناً غريزة المحاكاة والمباراة والمنافسة ، وأحياناً يتخذ من التشويق  
عضداً فيسوق إليهم الطُرف على سبيل الجزاء ، وأحياناً يحبب إليهم  
العلم والحفظ بالنشيد والأغاني ، وأحياناً يجلسهم ويفهم كي لا يكون  
للملل عليهم نفوذ ، فيذعنون إليه ويطيعونه عن رغبة .

درس فروبل هذه الشئون في نفسه وفي الأطفال الذين عهد إليه  
في تربيتهم ، فوفق إلى تأسيس المعهد الذي سماه « روضة الأطفال »  
ليتم عن الغرض منه ، وهو إلباس المدلولات العلمية ثوب الزخرف  
وأسلوب الألعاب ؛ وقد توسع أتباعه في هذا المقصد وابتدعوا  
ما شاءوا من النماذج الكفيلة بالغاية المنشودة . وهي إقبال الطفل على  
العلم بمحض الرغبة .

رأى فروبل أن الكرة أداة لا تستعصى على الحركة في أي  
وضع ، فصنعها من الخشب ، ووضعها أمام الطفل بحيث تتدحرج  
يمنى ويسرة منه وإليه ؛ وصنعها من المطاط لتخف بمرورها وهي في  
قبضته ، يرسلها إلى الفضاء ويتلقفها ، أو يرمي بها إلى الأرض أو على

الجدار فلا تتلف ولا يتلف بها ما تلامسه ، أو تربط بخيط من المطاط  
موصول طرفه بالإصبع ، ترسل إلى غرض ثم ترد منه ، أو تعلق بخيط  
وتحرك حركات ذبذبية ، أو تدار على محيط دائرة . والطفل حينئذ  
يتناولها ويُقلبها وتأمّلها ويدرب يديه حولها ، ويفحص عن مرونتها  
وصلابتها وشكلها وثقلها ولونها ، ويكاف أداء حركات يحاكي بها  
ما يؤدّيه المعلم أمامه ، ويشرحها بلسانه ، ويسأل عن تفسير ما غمض  
منها ، فيمرّن على الطاعة وإجادة العمل ، ويزداد دُرْبَةً بتمييز الأشياء  
والتعبير عنها .

وقد عوّل المؤدّبون على اللعب ، واختاروا الألعاب أشكلاً  
حاكوا بها مختلف الآلات ، ليحيط النشء علماً بما أخرجته الصناعة  
في عالم الوجود استعداداً لدرس المجتمع الإنساني الذي يؤمل أن  
يعيشوا فيه . ولم يكن عرض هذه النماذج مقصوداً على الصبيان بل  
تطرق إلى عُشاق التاريخ ، فإنها صيغت بحيث تشرح الأزياء  
والمعادن والأخلاق . ويرى المطلع عليها أحوال الأمم وهم في المصانع  
يشتغلون ، وفي المنازل يتزاورون ، وعلى المواثد يجلسون ، وفي المحافل  
والمتنزهات يندون ويروحون ؛ تعرض بها الأذواق المتباينة في بناء  
القصور وتزيينها ، وتنسيق الحدائق وتجويدها ، والسفن وتسليحها ،  
والقلاع وتحصينها . وقد أفردت لها في المعارض المشهورة أمكنة لما  
لها من رائع الأثر في التربية العامة .

وقد تصدّى « ساندو » للعلاج بالحركات البدنية ، يختار منها

ما يلائم المريض بعد تشخيص مرضه . وقد دل الإحصاء على نقص  
في نسبة الموتى بين أفراد الحيوان الذى يتجشّم الصهوبات ويتسّم  
المرتفعات ، حتى صحّ ما يقولونه : الموت سكون والحياة حركة .

## ( ١٤ ) غريرة الطرب من الغناء

الغناء كاللعب معدود من مظاهر الحركة البدنية ، يحدث من  
اهتزاز أوتار الحلق اهتزازاً يخرج الصوت خفيفاً وشديداً ، مرتفعاً  
ومنخفضاً بحال تعرف بالنغم والتلحين . والناس يتفاوتون في مبالغ التأثر  
به ، ولذلك تجد البارعين في الغناء يطوفون على ضروب الأتغام ،  
وينوعون استعمالها ، ويرجعونها لعابها تهز الأريحية ، وتضرب على  
الوتر الحساس الذى يطرب النفوس .

بهذا يمكننا تعليل نفاث النفس من الصوت الجارى على وتيرة  
واحدة كصوت البوق وطنين الذباب وقواق الدجاجة وتقيق الضفادع  
في الغدران وسقسقة المصافير على الأغصان . وربما خالطه رنين  
موسيقى بجمله مصدر ارتياح ، كهزير الريح وهدير النهر وزقازق الديك  
وصُداح البابل وهديل الحمام وسجع القمري وإن لم يكن معناه مفهوماً .  
وما ذا عسى أن يدلّ تغريد الطائر وهو في أعماق قفصه ؟ أهو يشكو  
السامة من وحشة الحبس ؟ أم يسرى به تباريح الحزن ؟ أم يصدح  
فرحاً لأن العادة أنسته حاله الأولى ، وجعلت له من القفص موطناً  
مقبولاً ؟ قال المعري :

أبكت تلكم الحمامة أم غنّة \* ست على فرع غصنها المياد  
والغناء يؤثر في نفس المغنى أضعاف تأثيره في نفس السامع ،  
فيليه عن طعامه وشرابه وسائر لذاته ، نقل المبرد عن عمر الوادى أنه  
قال : « أقبلت من مكة أريد المدينة فجملت أسير في صرد<sup>(١)</sup> من  
الأرض ، فسمعت غناء لم أسمع مثله ، فقلت والله لأتوصلنّ إليه ولو  
بذهاب نفسى ، فأنحدرت إليه فإذا عبد أسود ، فقلت له : أعد علىّ  
ما سمعت . فقال لى : « والله لو كان عندى قرى أقرىك ما فعلت ،  
ولكنى أجعله قراك ، فإنى ربّما غنّيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع ،  
وربّما غنّيته وأنا كسلان فأنشط ، وربّما غنّيته وأنا عطشان فأروى .  
ثمّ انبرى يفتينى

وكنت إذا ما زرت سمعدى بأرضها  
أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها  
إلى آخر ما أنشد . قال عمر : فحفظته عنه ثمّ تغنّيت به على الحال  
التي وصفها فإذا هو كما ذكر .

تأثير الغناء فى صنوف  
الانسان والحيوان  
إنّ الحيوان كالإنسان يطرب من الغناء ، فالقردة والذبّة والفيلة  
والهوامّ تهتزّ عند سماءه هزّا يدلّ على ارتياح واطمئنان . فقد روى  
أنّ من أفاعى الهند هامة كثيرة الفتك بالسكّان يستعملونها الكبرى ،  
تمدّ ضحاياها بالآلاف كل سنة ، وهى مع شدّة جموحها وعدوانها يذلّها  
الغناء . فإذا سمعته وهى فى أعماق أجحارها تخرج متهادية ، ثمّ تنصب

دَرَقَتِهَا نَحْوَ الْمَغْنَى ، وَتَهْتَزُّ يَمْنَةً وَيَسْرَةً عَلَى رَيْنِ النِّغْمَاتِ ، وَتَتَخَدَّرُ فِيهَا  
أَعْصَابُ الْحَذَرِ فَتَسْتَسَلِمُ لِلصِّيَادِينَ . وَالْإِبِلُ - وَهِيَ أَغَاظُ الْحَيَوَانَ  
أُكْبَادًا - تَضْنِيهَا الْمَفَاوِزُ ، وَلَوْلَا حُدَاءُ الْحَادِي لَتَقَطَّعَتْ ظُهُورَهَا مِنْ  
ثِقَلِ الْأَحْمَالِ ، فِي الْأَسْفَارِ الطَّوَالِ .

وَزَوْجُ السُّودَانِ يَتَهَافَتُونَ عَلَى صَوْتِ الْغِنَاءِ ، آتِينَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ  
حَدَبٍ ، عَاقِدِينَ لَهُ حَفَلَاتِ الرِّقْصِ ، رَافِعِينَ عَقِيرَتَهُمْ مِنْ شِدَّةِ تَأْثِيرِهِ  
فِي أَمْزِجَتِهِمْ .

وَالطِّفْلُ الرُّضِيعُ يَذْهَبُ الْحُزْنَ ، وَتَخْنُقُهُ الْعَبْرَةُ ، وَيَبْرَحُ بِهَ الْبِكَاءِ ،  
تَغْنِيهِ أُمُّهُ « نَمِ يَا حَبِيبِي بِسَلَامٍ » فَيَهْدَأُ مُضْطَرِبٌ مَزَاجِهِ ، وَيَنَامُ أَمِنًا  
مُسْتَرِيحًا ، ذَلِكَ لِأَنَّ نَفَثَاتِ الْغِنَاءِ كَالسَّحْرِ تُشْجِيهِ وَتُنْسِيهِ أَحْزَانَهُ .

وَالْعَمَّالُ يَطُولُ بِهِمْ زَمَنُ الْعِنَاءِ الْبَدْنِيِّ فَيَسْتَأْنِسُونَ بِالْغِنَاءِ  
وَيَزْدَادُونَ بِهِ قُوَّةً وَإِفْدَامًا وَنَشَاطًا . وَقَدْ يَلْهَى الْغِنَاءُ أَرْبَابَ الْمَهْنِ عَنْ  
مَزَاوِلَتِهَا ، قَالَ لَصٌّ عَنْ نَفْسِهِ : انْزَبَقْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَلْهَى مُوسَبِقِيَّ  
لَأَتَرْقُبَ فُرْصَةَ السَّرْقَةِ ، وَلَمَّا ارْتَفَعَ صَوْتُ الْغِنَاءِ الْمَشْجِيِّ غَابَ صَوَابِي  
وَأَلْهَانِي الْإِنْصَاتِ لَهُ عَنْ مَزَاوِلَةِ مَهْنَتِي ، فَخَرَجْتُ مِنَ الْمَلْهَى مَمْلُوءًا  
الْأَذْنِينَ ، صَفْرَ الْيَدَيْنِ .

وَلِلْأُمَّمِ فِي فَضْلِ الْغِنَاءِ حِكَايَاتٌ مُتَدَاوِلَةٌ رُبَّمَا عَزَاها السَّامِعُ إِلَى  
مِبَالِغَةِ الْخِيَالِ ، وَليْسَ بِكَثِيرٍ عَلَى لُغَةِ الْعَوَاطِفِ أَنْ تَتَسَيَّرَ عَلَى النِّفُوسِ  
وَتَفْعَلَ بِهَا فِعْلَ السَّحْرِ . قِيلَ إِنَّ مَدِينَةَ هَمَلِينَ Hamelin فِي أَلْمَانِيَا  
كَانَتْ تَمُوجُ بِالْفِيرَانِ مِنْ صَنْوَفِ شَتَّى ، تَعِيثُ فِي الْأَرْضِ وَتَشَارِكُ

the 1990s, the number of publications on the topic has increased steadily, and the number of authors has increased from 1 to 10.

The present study is a review of the literature on the topic of the use of the term 'cultural lag' in the 1990s. The review is organized as follows. First, the concept of 'cultural lag' is defined. Then, the use of the term 'cultural lag' in the 1990s is reviewed. Finally, the conclusions are drawn.

## 2. Cultural lag

The concept of 'cultural lag' was first introduced by Ogburn (1966). He defined it as a lag between material culture and non-material culture. The material culture is the physical objects and artifacts that a society creates, and the non-material culture is the ideas, beliefs, and values that a society holds.

Ogburn argued that the material culture is the primary force in social change, and that the non-material culture is the secondary force. He argued that the material culture is the cause of the non-material culture, and that the non-material culture is the effect of the material culture.

Ogburn's concept of 'cultural lag' has been widely used in the social sciences. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

In the 1990s, the concept of 'cultural lag' has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change. It has been used to explain the relationship between technology and society, and the relationship between culture and change.

نجيف الجسم بشئ الوجه غريب الزى وعلى عنقه مزمار ، أقبل وعرض عليهم أن يزيل عنهم هذه النعمة إذا وعدوه بالمكافأة ، فأطمعوه في الأجر إذا نجحت حيلته ، ومنَّوه بصدقاتهم متى تحققت بشارته . فخرج الرجل من فوره إلى الشارع ، وأخذ يعزف بلحن مشج ، فما لبثت الفيران أن خرجت من مخابئها مسحورة لا تلوى إلا على صوته . وكلما مرَّ بشارع خرجت أسراب فيرانه تتنافس وتوبا وقفزاً في اللحاق به . فسار الرجل ووراءه منها جيش عرمرم إلى أن وصل إلى النهر وهناك أغرقها .

ذاع هذا الخبر فطار السكان فرحاً به ، وتبادلوا فيما بينهم عبارات الشكر لله تعالى على تطهير المدينة من أوضار عدوهم اللدود . ولما قضى الرجل مهمته عاد إليهم مستنجزاً وعدم ، فرجموا وهزئوا بقوله وغمطوا حقه ، فاستشاط غيظاً وعمد إلى الانتقام ، فخرج مسرعاً وتناول مزماره وأخذ يعزف بتلحين بديع ، فما سمعه إنسان حتى اقترب منه وسار معه ، فتبعه الأطفال والصبيان والشبان والشيب والكهول وعلى وجوههم سيمي الفرحة والاستبشار ، كما ترى في الصورة السابقة . فما علم أن جاوز بهم حدود المدينة ، وتغلغل في مجاهل قاحله ، وفرَّ منهم كأنما ركب جناحاً نعامة ، وتركهم فتاهوا ، وانقطعت عن أهلهم أخبارهم . فقدّر كيف تكون براعة هذا الرجل في التأثير بالغناء الذي تصبو إليه على السواء نفس الحيوان والإنسان .

وإذا انتقلنا إلى أسمى مراتب الإنسان ، وتفقدنا الفلاسفة  
وقادة الأفكار وتحرينا ميولهم وجدناها تصبو إلى الغناء بدرجة ليس  
وراءها مزيد . أثر عن معاوية أنه رافق عمرو بن العاص ، وتوجها إلى  
عبد الله بن جعفر ليعيبا عليه جلوسه في مجلس الغناء . وعندما أنصت  
معاوية إلى تلحين الغناء سرت فيه نشوة الطرب ، فأخذ يحرك يديه  
ورجليه يضرب بها وجه السرير الذي كان جالسا عليه ، فقال له عمرو :  
اتد يا أمير المؤمنين ، فإن الذي جئت لتلحاه أحسن منك حالا وأقل  
حركة . فقال له معاوية : اسكت لا أبالك فإن كل كريم طروب .  
وكذلك حضر الرشيد محفل غناء فسمع ابراهيم بن المهدي يفتي بأبيات  
لمروان بن أبي حفصة :

طرتك زائرة فخيالها زهراء تخلط بالجمال دلالها  
هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها  
أوتدفمون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقلها  
فطرب الرشيد حتى صار من شدة نشوته يقوم ويقعد .

وعلى الجملة فالناس بطبيعتهم يطربون بالغناء لا فرق بين كبيرهم  
وصغيرهم ، حضريتهم وبدويتهم ، عالمهم وجاهلهم ، وربما كانت نفوس  
المفكرين أشوق لسماعه ، وأشد تهطشا لإيقاعه ، لاحتياجهم إلى  
ما يسرهم عنهم الهموم ، ويذهب عنهم عناء التفكير . وماذا عسى أن  
تقول في الغناء وهو التيار الروحاني ينبعث فيصيب القلوب ، ويملك

قيادها قسرا ، ويستخفّ بالجسم ، فتثور الأعضاء ، ويضطرب الجنان ويهتف اللسان ، ويهال ويكبر ، ويستعيد ويستزيد . وهذه الانفعالات نتيجة انبساط الأعضاء وسريان الدم فيها سريانا يزيد حركة النفس زيادة مقبولة كما حَقَّقته تجارب الحكماء . وبهذه الزيادة يكون انتعاش الجسم وانسراح الصدر . قال حكيم يوما لتلميذه وقد عزفت الموسيقى : أفهمت ؟ قال : نعم . قال له : بل لم تفهم ، لأنني لا أرى فيك سرور الفهم . وقد استعان به الأطباء لمعالجة الأمراض المصيبة ، واستعان به النفسيون لتذليل الخواطر الأبيّة . فإذا كان هذا هو حال الغناء وحده ، فما ظنك به إذا شارك الشعر وامتزج به ؟ وللشعر كالغناء ترنيم وتنسيق وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب ، واجتماعهما معا يوقظ التدبّر والتفكير لتقدير المعاني التي يحويها الشعر في أغراض الغزل والحماسة والفخر والتسلية والشوق والزهد والرثاء والأسف والمدح والوصف . ما أحلى وقع الغناء على النفس إذا لحن المغنى هذه الأبيات :

وأقسم ما أدنيت كفتي لريبة      ولا حملتني نحو فاحشة رجلي  
ولا قادنني سمي ولا بصرى لها      ولا دلني رأبي عليها ولا عقلي  
وأعلم أنني لم تصبني مصيبة      من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

نبذة في تاريخ  
الغناء

ولو تقبّت عن تاريخ الغناء وما له من الأثر السامى فى إحياء العواطف ما وجدت أمة خاضت غمار الحياة السعيدة بدونه . وإذا كانت متاعب الحياة تفلّ عزم النفس فإن سرور الغناء يشحذها ويعيد إليها حدتها الأولى . به كانت ملوك الفرس تلهى المحزون وتعالل المريض

وتشغله عن التفكير في مصائبه . وقد بدأ أبداع الإغريق في صناعته  
أيما إبداع ، وتوسّلوا به في قضاء الحوائج ، حتى كان إذا دجاليل  
الفتنة استدعوا زعماءها إلى حفلة الغناء ، وأسمعهم النصائح بلسان الغناء  
والموسيقى فيلين طباعهم ، ويكبح جماحهم . وكذلك عول عليه العرب  
في مهامّ أمورهم ، فكانوا إذا استصرخوا للحرب خرج نساؤهم مغنيات ،  
يستمنضن الرجال للذود عن الحرم والوطن ، فينسى الجندي نفسه  
عند سماع نبراته ، ويحمل على العدو معرضاً حياته للخطر ، والحياة  
أعزّ شيء للإنسان

إذا ترنم شادٍ للجبان به لاقى المنايا بلا خوف ولا فرق  
ناهيك بالعصر العباسي الذي ازدهى بجمال الشعر ورائع الغناء ،  
فاحتفى به الخلفاء ، وأسعدوا الجوائز إلى المجيدين فيه ، صبت إليه نفوس  
العامة والخاصة بعد أن هدأت الخواطر من أبناء الغزو ، وبعد أن  
شبت من ثمار الفتح ، وورفت عليها ظلال الحضارة ، فأنخذت من  
لسانه ترجماناً يعرب عن أغراضها . كان العباس بن الأحنف ينظم الشعر  
الرصين ، وكان أبو إسحق إبراهيم الموصلي يغنيه في حضرة الرشيد  
فمنعت إليه ، ويقبل عليه ، ويهتدي بهديه . وكان الغناء إذ ذاك  
مفزع الأمة تلجأ إليه عند الحادث الجلل لتشير به سورة الغضب  
استعداداً للمهاجمة . ولما همّوا بالوقعة بين الرشيد والبركة أسمعوه  
بلسان قينة قول عمر بن أبي ربيعة :-

ليت هنداً أنجزتنا ما تعدد وشفقت أنفسنا ممّا نجد

واستبدت مرّة واحدة إنّا العاجز من لا يستبد  
فانحرف الرشيد عنهم كأن لم يكن بينه وبينهم ولاء ، ولم يقبل  
فيهم قول شفيع ، وزجّ بهم إلى أعماق السجون  
وكما خيّل إلى « ترتيني » أنّه سمع غناء الشيطان في الحلم بما  
قصصه في باب الخيال ، خيّل إلى أبي إسحق الموصلي أنّه سمع غناء  
الشيطان في اليقظة ، ذلك أنّه خرج في ليلة ممطرة يتحسّس عن مذنّب  
يشاركه في إحياء حفلة ، فقابله ضرير استدعاه إلى منزله ، ثمّ شرع  
أبو إسحق ينغّي معجبا بصوته فاستخفّ به الضرير ، وقال له : لقد  
قاربت أن تكون مغنيا ، وتناول العود فجسّه ، وضرب على أوتاره في  
نغمة ليس لأبي إسحق عهد يسماعها ، فدهش ممّا سمع ، ولما خرج  
الأعمى ودّعه أبو إسحق فاذا هو قد غاب ، ولم يدر أفي السماء صدّيد ،  
أم في الأرض هبط ، فخيّل إلى أبي إسحق أنّ هذا الضرير شيطان  
تنكر له في هذه الصورة لينزله من عالي غلوائه .

وربّما اشترك المغنون والعازفون ، واستعملوا من آلات العزف  
البرّبط<sup>(١)</sup> والمزهر<sup>(٢)</sup> والقانون والقيثارة<sup>(٣)</sup> والرقّ والناي ، فيخرج من  
صوتها مزيج ذو نبرات بديعة تفعل في النفس فعل السحر الحلال . ولم  
يكن الغناء مقصورا على مجالس اللهو ، بل اتّسع له المجال كذلك في  
مجالس العبادة منذ زمن داود عليه السلام . ومنه استعير نوع من  
الترتيل في المساجد والكنائس ، وتصدّى له قراء القرآن بالإجادة ،

(١) العود (٢) العود كذلك (٣) الكنجج

فاجتذبوا به المسامع ، وشغفوها بحِكْمِهِ وأحكامه ، وقد ورد « زينوا القرآن بأصواتكم »

الغناء في المدارس

كان الإغريق أشدَّ الأمم اعتداداً بالغناء واهتماماً به في المدارس ، مرتوا عليه الأطفال منذ الصغر ، فمردودهم النفخ في الناي والضرب على الأوتار . وكان فروبل يتنزل إلى مستوى الصبيان ليتعرف ميوهم وما يتشوقون إليه . مرَّ يوماً بامرأة على إحدى ذراعيها غلام ، وراها تتقدم به إلى دجاجة ، وظلت تحاكي قَوَّاءها ، وتحرك أصابعها لتدعوها إليه ، فما عتَمَ الطفل أن حاكها بأصابعه وصوته ، فكان لهذا المشهد تأثير رائع في نفس فروبل حبَّب إليه نظم النشيد ، فألف منه ما سماه « دعوة الدجاج » ، وهكذا ظلَّ يترقب الفرص ، وينظم الأشعار الرصينة الجزلة ، في المغازي الرقيقة البديعة . فاذا تاق الطفل إلى صنع طيارة مثلاً ، فقد حان الوقت لسماع النشيد الملحن في هذا المعنى . وإذا توجهت نفسه إلى مداعبة القِطِّ أو إلى الإعجاب بالحمام وقد بهر بهاء ريشه وخفَّة حركاته ورائع غنائه ، فقد استندَّ للإنصات لنشيد يجمع هذه الأغراض ، وحينئذ تطمح نفسه إلى ترتيل النشيد في وقت تنوق فيه إلى التهذيب والتثقيف .

يحمل بنا أن نجبَّ إلى الأطفال ترتيل الأناشيد في أثناء اللعب ، فإنَّ اجتماعهما معاً ينشط الجسم ، وينمش الروح ، ويبرز الشعر في أجل حلة ، ويقوم فيهم آلة النطق ، ويذهب عنهم سامة القراءة المجرّدة من رخامة الصوت . نريد أن ندخل تدريس الغناء في مناهج

مدارسنا لتعيد ما درس من صناعة أسلافنا ، ولنستخدم قوته الروحانية في تذليل مصاعب الحياة ، فإن نفوسنا كثيراً ما تعروها السامة فتحتاج إلى ما ينبهها . ونحن إذا أدركنا هذه الغاية فقد حققنا أن نجرّد سيف عزيمتنا لمحاربة الوصمة التي دهمت الغناء ، فقد تناوله أهل البطالة ، واتخذوه ذريعة لرواج الخلاعة والمجون والهزل وسخيف النطق ، فشوهوا اللغة العربية واستعاضوا عن ألفاظها الشريفة ترايب أجنبية لا ضرورة لها . ولا سبيل لتعويد السامع ما نرغب فيه من رواج الألفاظ الفذة والترايب الجزلة إلا بمجوده التريل وحسن الغناء . فليمدّ الأدباء والمغنون أيديهم للأخذ بناصرها ، فالأمال معقودة بمساعدتهم .

وقد تحرّكت في النفوس رغبة صادقة في الإقبال على الغناء والضرب على آلات الطرب ، ويبشّرنا أنه تولدت بمصر نهضتان : نهضة هواة الفن لتشييد أندية الموسيقى ، وفيها تحيا الأغاني وتتجدد أنعامها بما يبتكره البارعون ؛ ونهضة طلبة المدارس الثانوية ، ومظهرها ما يتجلى من براعتهم الموسيقية في حفلاتهم السنوية .

أما طريقة تعليم الغناء والضرب على آلات الطرب عندنا الآن فلا تخرج عن نوع الطريقة الساذجة التي تتعلم بها الاميون لغاتهم ، وجلّ الاعتماد في تلقينها على السماع والممارسة والمحاكاة ، ويظهر السبق لمن ركزت عنده ملكة الفن وصحّت لديه قوة التقليد . أمّا من لم يوهب

تلك القوة وقد صحت عنده العزيمة على تعلم الغناء فلا يجد من يأخذ بيده ويسير به على التدرج من المقاطع إلى الأدوار ، وأين يجد المدونات لنماذج الأصوات الجميلة التي كان المجيدون يتغنّون بها ؟

قد يرجع الإنسان إلى أسطوانات الحاكي ، وقد يرجع إلى أهل الفن فيسمع منهم النغمات ، ولكن إذا اختلت الأسطوانات أو مات حفاظ الأصوات أو ضعفت ذاكرتهم ضاعت الثقة بما احتفظوا به من أدوار الغناء وطرق أدائها وكانت عرضة للضياع أو للتشويه والمسح ، كما ضاع كثير من أديّات الأعصر الخالية .

إنّ الغناء لغة العواطف ولكلّ أمة فيه لسان خاص ، وهذا هو السبب في أنّ الشرقيين لا يطربون من غناء الغربيين ولا يطرب الغربيون من غناء الشرقيين ، فاقْتباس أحدهما من الآخر لا يجدي ، اللهمّ إلا أن يكون اقتباس طرق التدوين الموسيقيّ وطرق التعليم الغنائيّ ، وما عهدنا لغة رقيت وأهلها أمّيون . فعلى أهل الرأي والغيورين وهواة الفن أن يتضافروا على إبراز طريقة تكفل لمن يتوخّاها تسهيل تعلم الغناء ، فلماذا نجحوا — ونأمل أن يكون ذلك قريباً — فالرجاء كبير في اعتبار هذه الحركة المباركة أساساً لإدخال الغناء والموسيقى في منهج المدارس .

## (١٥) غريزة الادخار

تتجلى هذه الغريزة في صنفين من الحيوان وهما : النحل والنمل ؛ فالنحل يصنع خلاياه من الشمع ويدّخر فيها العسل مما يقطفه من رحيق الأزهار ، ليغذّي نسله وليتغذّي به عند الحاجة ؛ والنمل يبني قريته في جذوع الأشجار وفي الجدران وفي باطن الأرض ، ويتخذ فيها غرفاً يدّخر في بعضها قوته ويحفظ في بعضها نوعاً من الحشرات التي تفرز اللبن لغذائه .

ولو تأملت النمل لوجدته كالنحل في شغل شاغل ، تخرج النملة من قريتها ، وإذا عثرت في طريقها على حبة خفيفة حملتها أو جرّتها ، وإلا رجعت لتدعو شركاءها ، وكلما مرت بنملة لمستها بزُبَانِيَّيْهَا تستحثّها على المساعدة ، وبهذا يتضافر النمل جميعاً على العمل . حاملاً ما قدر عليه من أصناف الغذاء إلى قريته حيث تربته الأمهات ، ويجزئته متى خفن الإنبات . ويستمرّ النمل كادّاً على هذا المنوال طول الصيف وقد شاهد جيمس هذه الغريزة ظاهرة الأثر في كلب صيد ولد في أرض إصطبل ونقل صغيراً إلى منزل فرشت أرضه بالطنافس ، رآه يحاول نبش الأرض ليخفي قفازاً أمسكه بغمه ، وما زال بالبساط حتى خدشه وأخفى به القفاز ، فمل هذا أربع مرّات ثمّ انقطع عن فعله لأنه لم يجد مجالاً لترين هذه الغريزة . فلو كان ما في فمه قطعة لحم

مثلاً بدل هذا القفاز ، وكانت الأرض صالحة للنبش لاستطاع أن يدخر ما زاد على قوته ليركن إليه عند الحاجة .

هذه الفريزة مؤقتة تظهر إلى سنّ محدودة في الحيوان وفي الإنسان ، وفي غضون هذا الزمن تذبل أو تنمو إذا أهملت أو روعيت نجد الطفل إذا أُعطي ما كوّلاً تناول منه ما استطاع ، وأبقى في يده ما زاد عليه ، وربما أودعه مكاناً وأخفاه عن الأعين . كذلك نراه يجمع في « الحصالة » فضلة ماله ، حتى إذا غصت بالنقود كسرهما وعبث بما فيها ، والطفل محتاج دائماً إلى من ينبهه على وجوه الصرف الحقيقية . وما ظنك بالآباء الذين يكتفون بجمع المال لأبنائهم وبمولونهم من تمرين ملكة الادخار ؟ ما ظنك بهم وقد اتقضت آجالهم وتركوا هذا المال للورثة الذين لا يحسنون رقابته ولا يعرفون طرق تثيره ؟ إنهم وقد فعلوا ذلك قد أخطئوا السبيل الموصلة إلى صيانة أموالهم وبقاء ذريتهم على النهج الذي يأملونه ، لأنّ الأموال لا يصونها إلا أناسٌ خبروا ألوان المشقة في جمعها ومرّوا بأنفسهم على تثيرها .

يقول الفتي ثمرت مالي وإنما لوارثه ما ثمر المال كاسبه  
يحاسب فيه نفسه في حياته ويتركه نهياً لمن لا يحاسبه  
فالمال — وهو أخو الروح ، وأجر للجهود المضنية ، ووسيطٌ  
نيل الحاجات ، وسيرٌ من لا تسموبه الخصال ، ولسان فصيح المقال ،  
وسلاحٌ في ميدان الكفاح والنضال — قد أصبح الشغل الشاغل

للإنسان مهما كان شأنه في الحياة ، فالساذج يدخر المال ويودعه  
الحفيرة ويخفيها عن الرقباء ، والبخيل يودع ماله الخزائن أو للمصارف  
حارماً نفسه لذّة الانتفاع منه ، والمقتصد المدبر يدخر ماله تدريجاً ،  
فيشتري الساعة وينقد ثمنها نجومًا يدخرها من إرادته ، فيستفيد  
بذلك فائدة مضاعفة ، وربّ الأسرة يتحرّى مواسم الحصاد ، فيشتري  
من الغذاء كفايته طول عامه ، فيستفيد قريبا من متناوله ورخص  
ثمنها وأمن غائلة الأزمات ، ولم عادت عواذها في أيام المحن .

وضروب الاحتيال لنيل أسباب الادّخار وفيرة . ومع أنّنا نعلم  
أنّ منزلة الإنسان في قومه ، وكرامته بين نظرائه يحتمان عليه أحياناً  
الخروج بالنفقة عن حدود الطاقة ، فلا تزال تقرّر أنّ من مقتضيات  
الادّخار أن يجعل مصروفه أقلّ من دخله ، وأن يفكر دائماً في تدبير  
شئون الحياة . والمدبرات من النساء لا يشتري كلّ زى جديد ، لأنّ  
هذا يستنزف أموالاً طائلة ، ولكنّه يتحيّل ويدخلن على مايسمن  
القديم من التعديل ما يجعله ذا مسحة جديدة ، وإذا بلى منه جانب  
رفونه أو الصقن به بعض الزخرف ، يسترن عيبه عن أعين الناقدات ،  
وإذا أعياهنّ الأمر اتخذن منه ملابس للأطفال .

وقد حكمت علينا العادات القومية أن نكون أسبق الأمم في  
الإسراف والتبذير ، فلذلك لجأت الحكومة إلى إنشاء صناديق  
الادّخار ، وسهّلت طرق الوصول إليها ، واستصدرت من مفتي الديار  
المصرية المرحوم الشيخ محمد عبده فتوى بحلّ استعمالها فأقيمت عليها

الأمة ، وزاد الادخار على مدى الأيام نمواً ، فأدخل في المدارس ، ونشط الإقبال عليه بضروب المنافسة . بيد أن طبيعة الطفل نزاعةً إلى اللهو ، وإلى إدراك ثمرة أعماله على الفور ، فيعوقه هذا عن مواءمة الادخار ، ويعترضه الفتور وهو في سبيل السعي ، لذلك كان حقاً على المشرفين على الأطفال أن يزيدوهم حثاً وتشجيعاً ، ويزودوهم بالأمثلة من طريق القدوة الصالحة ، ويستكتبوهم للموضوعات في ثمرات الادخار . وإنك لو حادثت الطفل عن مكنون ضميره لأظهر لك أن نقوده التي يودعها صندوق الادخار طائفاً مختاراً هي محبوسة عنه وهو محروم منها ، إذ لا يستطيع ردها من مصلحة البريد إلا بإذن ناظر مدرسته وهيئات أن يأذن له . وما لم ير التلاميذ أنفسهم في حلٍّ من استرداد أموالهم والانتفاع بها لا تجد فيهم الإقدام الإرادى ، ولا يعتادون الادخار وهم في مقتبل العمر .

أما وجه الفائدة من الادخار فلإنها قد تكون شخصية محضة ، لأن المدخر يستفيد مما يدخره ما ربما يتساهل في إنفاقه لولا الادخار، والموظف يستفيد من ادخار جزء من راتبه يضمن معاشه عند اعتزاله العمل .

وقد تكون الفائدة اجتماعية لمؤاساة الفقراء ابتغاء الأجر الذي وعد الله به عباده المحسنين . وقد تكون ضاربة في هذه الأغراض بسهم ، كما يرى في شركات التأمين على العقار وعلى الحياة إزاء مبلغ يدفعه الأعضاء كل سنة ؛ وكما يرى في شركات التعاون المنزلى التي

تبيع المواد المنزلية لأعضائها بثن قليل الربح ؛ وكما يرى في شركات  
التعاون المالي التي تجمع الأموال من أعضائها ، وتمطيه من يكون  
منهم أقدر على العمل ليثمره ؛ وكما يرى في النقابات الزراعية التي تتعهد  
شراء الآلات والدواب والبذور والسماد وتبيعها للفلاح بربح زهيد ،  
أو تتقاضى منها مما تخرجه الأرض من الغلات ؛ وكما يرى في نقابات  
العمال وبها تسمى طوائفهم لرأب صدعها ولم شعثها ، ويد الله على  
الجماعة

